محمود تيمور

نداء المجهول

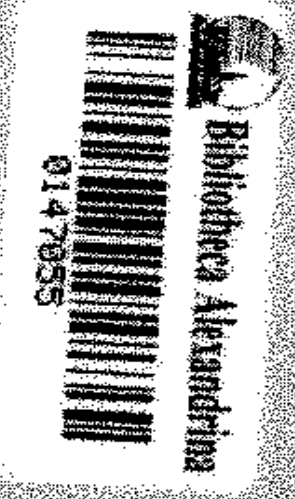

Bibliotheca Alexandrina
0147956

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٢٣٧٦
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورية بـ... الحلمية

محمود تيمور

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف : 892.73 ك
[illegible]
رقم التسجيل : ١٦٨٦٤

نداء المجهول

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٦٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

محمود تيمور

[قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية تتويج جميع
الانتاج القصصي باللغة الفصيحة لمحمود تيمور بك ،
ومنحه جائزة القصة لسنة ١٩٤٧

وقد أعلن المجمع قراره هذا في حفل أقامه
يوم ٥ ابريل سنة ١٩٤٧ بدار الجمعية الجغرافية .

وكان المقرر هو حضرة صاحب العزة الاستاذ
محمد فريد أبو حديد بك عضو المجمع ومفتش معهد
التربية للمعلمين ، فألقى بحثا جاء فيه ما يأتي]

. . . اختار المجمع اللغوى فى هذا العام من بين المبرزين فى القصة الأستاذ الكبير محمود بك تيمور ، فأهداه جائزة القصة إشارة منه إلى هذا المعنى ، ثم اعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث .

فقد ألف الأستاذ محمود تيمور بك نحو خمسة وعشرين كتاباً فى القصص ، بعضها مجموعات من قصص قصيرة ، ويبلغ عددها اثنتى عشرة مجموعة ، وبعضها من قصص تمثيلية ويبلغ عددها عشرا ، وفيها فوق ذلك قصتان طويلتان لم نظهر سوى إحداهما ، وهى

« كليوباترة فى خان الخليلى » فأكثر جهود الأستاذ تيمور بك متجهة كما يظهر إلى نوعين من القصة : التمثيلية ، والقصة القصيرة .

وقد كانت القصة التمثيلية عنده أسلوبا فى الكتابة لا يقصد بها الاتجاه إلى التمثيل على المسارح ، فتمثيليات « تيمور » أقرب إلى أن تكون نوعاً آخر من القصة القصيرة .

والفرق بين النوعين أن التمثيلية تعتمد فى تصوير الأشخاص على محاورات أحاديثهم وحركتهم ، على حين أن القصة تعتمد على الأكثر فى تصوير الأشخاص على وصف هيئاتهم ووصف مواقفهم وما يبدو من أعمالهم .

ولم يخرج من تمثيليات « تيمور » على المسرح إلا عدد محدود ، وكان آخرها تمثيلية « حواء الخالدة » التى كان لها أكبر حظ من التوفيق . ولسنا هنا فى سبيل التعرض لطريقة « تيمور بك » فى فنه ، ولا للتحدث تفصيلا عن مذهبه فى القصة . وحسبنا أن نشير إلى أنه فى كل آثاره يتجه نحو إبراز الفكرة الواحدة يعرضها فى إطار محدود ، ومن ثم يمكن أن نقول : إن فن القصة القصيرة وما يتصل بها من المسرحيات القصيرة هو الجانب الذى خص به فنه إلى الآن . فهو فى أدبنا الحديث يشبه « تشيكوف » و « مكسيم جوركى » فى الأدب الروسى ، و « موباسان » فى الأدب الفرنسى .

ولعل هذا الشبه لم يكن عفوا ، فقد كتب الأستاذ « تيمور » في مقدمة مجموعته القصصية « فرعون الصغير » متحدثا عن « موباسان » قال : « وتابعت قراءتي إياه في شغف عظيم ، واتسعت مطالعاتي فيما بعد في القصص الأوربي وتشعبت ، ولكني حتى اليوم ما زلت محتفظاً لموباسان بالمكان الأول من نفسي » . . .

ثم قال : « وانتقلت بعد ذلك إلى القصص الروسي ، وقرأت « لتشيكوف » و « تورجنيف » ومن ماثلهما ، فرأيت تأثير « موباسان » واضحاً في بعض إنتاجهم »

ولا يملك المتتبع لآثار « تيمور » إلا أن يرى الفرق واضحاً بين آثاره الأولى وآثاره الأخيرة .

ولعل مجموعة قصصه « فرعون الصغير » هي التي تمثل لنا روح فنه في العصر الأول ، وهو يسير فيها — على عادته — برسم الأشخاص في براعة حتى يكاد القارئ يلمح فيهم بعض من عرف من جيرانه ، ولكن حماسة الشباب تبدو واضحة في أسلوبه : ففيه يعلو صوته وتشتد حركته حتى لقد تبلغ ما يشبه العنف ، ثم هو يعمد أحيانا إلى شيء من المفاجأة ، وقد يظهر ما ينم عن الحنق أو الأحكام الخلقية

ولكن آثاره الأخيرة تنم عن تغير محسوس في أسلوب التعبير ، فهو يرسم الأشخاص كما اعتاد أن يرسمهم في براعة ، ولكنه يتحدث

هادئا مترفقا منخفض الصوت رقيق الحركة ، تحس فى كل عباراته أن قلبه مملوء عطفاً على الإنسان .

وإنا نستطيع أن نقول فى ثقة إنه قد بلغ فى بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية حق لنا أن نفاخر بها . فهو فى قصته « ولى الله » من مجموعة « شفاه غليظة » يصور أسمى جانب من القلب الإنسانى عندما يصور لنا أن هناك ماهو أعلى من عدالة القوانين . وفى قصة «كلب أسعد بك» يرسم لنا فى وداعة صورة اجتماع السمو والإسفاف فى الحطام البشرىّ وفى قصة « البديل » يصور لنا كيف تنطوى أسمى العواطف فى قلب الإنسان وإن كان فى عرف المجتمع الجامد موضعاً للزراية . ففى مثل هذه القصص يظهر فن « تيمور » رائعاً إذا قيس بأعلى آثار القصص فى الأدب العالمىّ .

وإذا كان الأستاذ « تيمور بك » قد اتجه فى بعض قصصه نحو مجاراته الكتابة باللغة الدارجة ، فالظاهر أنه قد وجد اللغة العربية الصحيحة أولى بفنه ، فنحا أخيراً فى أسلوبه منحى يجمع الصحة والسلامة والسهولة . ولعل هذا اعتراف منه بما تنتظر اللغه العربية من فنه .

فإذا أردنا أن نجمل ما تمتاز به طريقة الأستاذ « تيمور بك » فى قصصه ، كان لنا أن نقول على طريقة القدماء فى وصف الأدباء :

إنه يمتاز بثلاث :

أنه يرسم الأشخاص حتى إنك لتحس أنفاسهم وتلمح الحياة فى سهولة حركاتهم .

وأنه يكتب فى لغة سلسة لا تحجب شيئاً من معانيه .

وأن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لاتحس معه حرارة فى وصف ، حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنسانى .

إن « تيمور » إذ يتحدث عن الناس فى ضعفهم يتحدث عاطفاً كأنما هو يحبهم لما فيهم من العيوب ، ويصور سموهم معجبا بغير أن يجعل الإعجاب يخدعه عن الحب .

ولهذا نعتقد أنه أبرع ما يكون وأحلى إذا تحدث عن الناس كما يراهم فى لمحات قصيرة كأنه عابر طريق .

وهو فى ذلك يخدم الأدب من ناحيتين :

الأولى : أنه يشير إلى مثله الأعلى الإنسانى ، ويصوره لنا فى صوره البارعة .

والثانية : أنه يعرفنا بالجانب الذى يعرفه من مجتمعنا المصرى ، فهو معلم من معلمى هذا الجيل ، وهو عامل من العوامل القوية على تعريفنا بأنفسنا .

وإذا كان للقصص الرمزى والأسطورى فنه وفنانوه ، وإذا كان للقصص الطويل فنه وفنانوه ، وإذا كان للنقد الناثر فنه وفنانوه ؛

To: www.al-mostafa.com

فإن فن « تيمور » هو القصصى القصير الواقعى الإنسانى المملوء محبة للإنسان .

وإنه ليشرفنى أن أنوب عن المجمع اللغوى فى توجيه الثناء إليه ، راجياً له اطراد التوفيق والسمو ، سائلا الله أن يمده بروح من عنده ، حتى تتكون للعربية الشريفة ثروة من ثمار إنتاجه وإنتاج أنداده من المبرزين فى فن القصة الذين تعتز بهم العروبة ؟

محمد فريد أبو حديد

١

سافرتُ إلى « لُبنانَ » ، سنة ١٩٠٨ ، لأروِّحَ عن نفسى ، وأنعَمَ بفترة هدوء وبُعد عن صَخَب الحياة ، و « لبنان » ، وقتئذ تحت السيادة التركية . وقصدت إلى « بعتاب »[1] وهى قرية صغيرة لا تحوى سوى ثلاثة منازلَ ، وفندق متواضع لا يسع أكثرَ من ثمانية أشخاص . وكانت المِنْطَقَةُ فى مَعْزِل ناء ، فأقرب بلدة إليها تبعد منها مَسِيرَ ساعتين على البغال .

استقر بى المقام فى « فندق الأمان » لصاحبه « الشيخ عاد أبو المجد » ، ووجدت المكانَ وَفْقَ هواى : هدوء شامل ، وهواء جافّ بارد يبعث فى الجسم النشاط ، ومعيشة ساذَجَة قريبة إلى الفطرة . فالفندق أشبه بمنزل ريفىّ ، غرس أمامه « الشيخ عاد » بعضاً من أشجار الصَّنَوْبَر والتفاح والعنب ، وأصنافاً من الأزاهر ، بطريقة غير منسقة ، ولكنها مقبولة .

---

(١) الأسماء الواردة فى هذه الرواية مصنوعة .

وكانت الجبال الشامخة تحيط بتلك البقعة الوادعة، كأنها حراس يخفرونها. والوادي البعيد منبسط أمام الفندق بزروعه المختلفة الألوان. وعلى سفح الجبل قطعان الماشية ترعى الحشائش الجافة التي تنبت في جرأة عجيبة بين الصخور.

وكنا نبيح لأنفسنا الظهور في الفندق، وعلى المائدة نفسها، بالملابس التي تروقنا. فيرتدي كل واحد منا ملابسه الوطنية المريحة، وقد شجعنا على ذلك «الشيخ عاد» نفسه، إذ تعود أن يظهر أمامنا بملابسه الشرقية البديعة: القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية، والجبب الحريرية الفضفاضة الموشية بالقصب، يغدو فيها ويروح بمشيته المتزنة الهادئة. ووجهه الصبيح مشرق دائم الابتسام، فتخاله سلطاناً من سلاطين ألف ليلة . . .

والرجل حلو الحديث، غاية في السماحة وكرم الضيافة. وقد تعجب لتلك القيمة الزهيدة التي يرضى بها أجراً للمبيت والطعام، مع أنه يقدم لك من المآكل ما يساوي أضعافها. ولكنك إذا علمت أنه يملك قطعاناً من الغنم، وأرضاً شاسعة للزراعة، وبساتين مزدحمة بالكروم ومختلف الفاكهة، زال عجبك، وأيقنت أن كرم الرجل سجية فيه متأصلة، ساعده عليها

غناه . وما إدارة الفندق فى الحقّ إلا هوى نفسىٌّ لا يخلو من شذوذ .

واعتدنا نحن سكانَ الفندق ، أن نجتمعَ وهو معنا على مائدة واحدة ، والمائدة مستديرة تضم على سطحها العريض ما لذّ وطاب من ألوان المُشَهِّيَاتِ التى اشتَهرَتْ بها الموائد اللُّبنانية. فإذا جاء الخَدَمُ بصِنْفٍ من الطعام ، وضعوه وَسْطَ المائدة ، وتولى الشيخ توزيعَه علينا . وكثيراً ما استغنينا عن الملاعق ، فاستبدلْنا بها أصابعنا ، نترك لها حرية العمل ، كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا منذ القدم . وكأن سذاجة الحياة التى تحيط بنا ، أوحت إلينا ذلك ، فجعلتنا نُزْرِى بتلك القيود البغيضة التى فرَضَتْها علينا مدنيتُنا الحاضرة . وفى أثناء الطعام ، يسامرنا « الشيخ عاد » بحديثه الطَّلِىّ ، ويقص علينا قِصَصَه الطريفة فى لهجة عذبة مُشْبَعَةٍ بحنان الأبوة . أما نحن فكنا نصغى محملقين فى وجهه ، يَغْمُرنا سحر عجيب ، فكأننا انقلبنا أطفالاً صغاراً يُنْصِتون إلى ما يُرْوَى لهم من بدائع الأساطير !

ومن غريب ما علمتُه من شأن « الشيخ عاد » أنه على علم بوسائل التَّطْيِيب ، يمارسها على طريقته الخاصة ، باستخدام

الأعشاب وبعض العقاقير الحديثة . وقد شَهِدْتُ بعضَ المرضى الفقراء من أهل النواحي القريبة ، يَقْدَمُون إليه ، يستشفُونَ على يديه . فما يردّ أحداً منهم ، بل يزوّدهم فوق فحصه عن علتهم بالدواء من صيدليّتِهِ المنزلية .

وكنا فى ذلك الوقت ستةَ أشخاص ، غير « الشيخ عاد » وخدم الفندق . ومن الطريف أن تضم أسرتُنا هذه سيدةً إنجليزية ، قيل : إنها مستشرقة ، وقيل : إنها متخصصة فى العلوم الطبيعية ، جاءت « لُبنان » تدرُس طبيعة أرضه ، ونباته وحيوانه . . . هى فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، هادئةُ القَسَمات ، ما تزال نَضْرَةُ الشباب تتخايل على وجهها الجميل .

وألفيتُ مرة ، فى الحديقة ، « حبيب » الخادم ، طروبا فى وِقْفَتِه ، يَرُشّ الزرع ويغنى . فقلت له وأنا أداعب سُبْحَتِى وأبتسم :

« ما رأيكَ فى صاحبتك الإنجليزية ؟ »

فحدق فىَّ لحظةً ، ثم اندفع يقهقه . وأخيراً قال لى :

« ما لك ومالها ؟ اترُكْها وشأنَها ، وإلا فالعاقبة وخيمة ! »

ثم التفت حوله فى حَذَر ، ودنا منى ، وهمس فى أذنى :

« ألست تَرْهَبُ الجواسيس ؟ »

فدَهِشت ، وتركت «حبيب» وقد اشتدّ اهتمامى بهذه السيدة . وكان قد مضى علىّ بضعةُ أيام فى الفُندق ، تعرفتُ فى أثنائها بجميع النُّزَلاء ، إلا أنى لم أهتم بغير هذه الإنجليزية وبرجل سورىّ مترهِّل الجسم ، له رقبة مجعَّدة ناحلة كرقبة النَّسْر الهَرِم ، اسمه « كنعان » ، يَدَّعى أنه أستاذ للتاريخ فى دار الفنون بـ « أستانبول » . . . أراه دائماً فى الحديقة ، حيث يفترش العُشْبَ الأخضر ، ويتوسد حُزْمَةً من الهشيم ، ويمضى يدخّن «النارجيلة» فى اطمئنان . وكثيراً ما تغاضيتُ عن مبالغاته وأكاذيبه يُنمق سردها تنميقاً يُكْسِبها مظهرَ الحقيقة .

أما السيدة الإنجليزية « مس إيفانس » فقليلة الكلام ، مُحبة للعُزْلة ، لا تبادلُنا فى فترة الأكل إلا بضع كلمات بلغة بين الفصحى والعامية ، تنطقها فى شىء من الصعوبة . ولكنها تُنْصِت لحديثنا أىّ إنصات ، ولاسيما إذا تحدث « الشيخ عاد » ، فأيقنتُ أنها تفهم العربية جيداً ، بيد أنها لا تحسن التلفُّظ بها فى يُسْر .

ولاحظت أنها تخرج من الفندق كثيراً ، وتتغيّب طويلا وربما قضت النهار كله فى الخارج ، لا تعود إلا بعد مَغْرِب الشمس فسألتُ « الشيخ عاد » :

« أين تكون هذه السيدة حين تغيب ؟ »

فقال لى وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

« ربما كانت تَدْرُس طبيعة الجبال ! »

وكانت إذا آثَرَتِ المُكْثَ فى الفندق ، جلستْ على مقعد مُرِيح فى طرف الحديقة البعيد ، وفى يدها كتاب تطالع فيه .

وكثيراً ما رأيتُها تقضى الساعاتِ الطوالَ على مقعدها ، تنطوى نظراتُها على عزم ونشاط وإرادة ، تخالطها وداعة مُحبَّبة . والكتاب ملقًى بجوارها لا تنظر فيه ، وهى تحدق بعينيها الزرقاوَيْن الحالمتَيْن فى الوادى البعيد الممتدّ تحت قدميْها ، أو فى الجبال الشامخة المحيطةِ بها ، وقد أشرق وجهها بنور عجيب ، وراحة نفسية شاملة .

* * *

ومرةً كنتُ أتنزه فى الحديقة ، تحت ظلال الصنَوْبَر ، فرأيت « مس إيڤانس » قاصدة إلى ركنها البعيد ، متأبطة بضعَ صحف ، وورقةً كبيرة مُبَطَّنَةً بالنسيج ، ملفوفةً على شكل الأُسطوانة ، فما شككتُ أنها « خريطة » من « الخرائط » . فجعلتْ تجذب اليها مقعدها الطويل ، فرأيت نفسى قد اندفعت

نحوها . . . ولما دنوت منها سلمت عليها منحنياً ، وقلت لها الإنجليزية :

« أأستطيع أن أساعدك ياسيدتى فى نقل هذا الكرسىّ ؟ »

فابتسمتْ فى لطف ، وقالت :

« أشكر لك جدًّا ، ياسيدى . لا موجِبَ مطلقاً لأن تتعبَ نفسك ! »

ولكنى أخذتُ المقعدَ منها ، وحملته وأنا أبتسم . وسرت بها ، ثم قلت :

أتُعجبكِ هذه البقعة ؟

— إنها من أجمل المناطق التى رَأيتها فى أسفارى !

— والفندق . . . أتَجِدينَ فيه راحتك ؟

— كل ما هو فطرىّ ساذَج أجد فيه راحتى المنشودة . . . وأنتَ ، أمسرورٌ من إقامتك هنا ؟

— كل السرور !

— وهل تمكث طويلا ؟

بضعة أسابيع . . . وأنت ؟

— قد أمكث حتى يغلقَ الفندقُ أبوابه . . . إن لى مهمة أريد قضاءها ، ولا أدرى كم تتطلب من الوقت !

وسقطتْ من يدها عفواً حزمة الصحف ، فانحنيت عليها ، وجمعتها لها ، فإذا بها من الصحف العربية . فنظرت إليها مستطلعاً ، فابتسمتْ وقالت :

لى شَغَف بلغتكم ، وقد استطعتُ بعد دراسةِ بضعةِ أشهر أن أقرأها . . .

— وكيف تجدينها ؟

— صعبة ، ولكنها موسيقية ساحرة !

وابتسمتْ ، فابتسمتُ أنا أيضاً .

وكنا قد وصلنا إلى ركنها المختار ، فأنزلتُ الكرسىّ ، وأعددته لها ، وأحسست رغبةً تدفعنى لأن أطيل الحديث معها . ولكنى خشيت أن أعكر عليها صفو وحدتها ، فانحنيتُ أمامها أحييها . وفيما أنا عائد أدراجي وجدتها تبسط الورقة المبطنة بالنسيج أمامها ، فاسترقتُ النظرَ إليها ، فإذا بها « خريطة » لبعض الجبـــال ، عليها بعض العلامات بألوان مختلفة . ورأيت « مس إيفانس » قد انحنت عليها تتَفحَّصُها وتدرس خطَطها بانتباه . . .

وانقضى يومان لم أر فيهما « مس إيفانس » إلاّ لِمَاما ، ولم تسنح لى الفرصة أن أبادلها الحديث . وفى اليوم الثالث لقيتها فى الحديقة ، وهى تجرُّ مقعدها الطويل ، ذاهبةً به إلى ركنها المنعزل المشرف على الوادى . فأسرعتُ إليها ، ونُبْتُ عنها فى حمل المقعد ، فنظرتْ إلىَّ شاكرة ، فقلت لها :

لمْ تشاركينا فى الطعام طَوَالَ يومين . أرجو ألاّ يكونَ بك بأس . . .

— أشكر لك . لقد كنتُ فى نزهة جبلية !

— وحدك ؟

— أجل ، وحدى ، ولكننى قد أعتمد فى بعض الأحيان على إرشاد دليل . إننى مغرمة بمثل هذه النزهة الفردية !

وسرنا وقتاً صامتَين ، وأنا شديد الرغبة فى مُتابعة حديثها معى ، لعلى أكشف شيئاً من غوامض أسرارها .

. . . ولما وصلنا إلى مكانها المختار ، بسطتُ لها مقعدها . فقالت لى وهى تتهيّأ للجلوس :

« ألا تظنّ أنى فى العزلة واجتنابِ المجتمع مَنجاةً من شرور كثيرة ؟ »

فسُررْتُ من سؤالها ، إذْ تبينتُ فيه الرغبةَ فى مجاذبتى أطرافَ الحديث . فقلت :

نعم . لا بأس بالعزلة المُؤقّتَة ، يفزَعُ إليهـا المرءُ بين حين وحين .

— والعزلةُ الدائمة ؟

— إنها تَبَتُّلٌ ياسيدى ، والتبتلُ لا يطاق !

وجلستْ على المقعد متمدّدة ، فظهرت معالمُ جسمها الفاتن . وحدقتْ فى السماء بعينيها الصافيتَيْ الزرقة ، اللتين تكشفان عن عراقةِ مَنْبِت ، وسلامةِ قلب . وقالت :

« إن التبتلَ يُروّضُ نفوسنا ، فتنقشعُ عنهـا غِشاوَتُها ، ومِنْ ثَمّ نستطيع أن نرى الوجودَ على حقيقته ! »

فأسندتُ ظهرى إلى ساقِ صَنَوْبَرة عتيقة ، وعقدتُ ساعِدَىَّ بِصَدْرِى . وقلت :

« وماذا يَهُمّنى من معرفة هذا الوجود؟ حسبى أنى أعيش فيه ! »

فرَنَتْ إلىّ ، وقالت فى شىء من الاهتياج :

إذا فهمنا الوجودَ على حقيقته ، اتصلنا بالسعادة الدائمة ؟

— إن السعادة ياسيدتى حولنا ، غيرُ بعيـــدة المنال منا ،

فلِمَ هذا الطريقُ الوَعْر ؟

— إن السعادة التى تطلبها أنت وغيرك من طلاّب الدنيا ،

هى سعادةٌ رخيصة تافهة !

— صدِّقينى ، ياسيدتى ، ليس فى الكون إلا سعادةٌ واحدة !

فقاطعتنى ، غيرَ مَعْنيَّةٍ بإجابتى ، وقالت :

« لقد كنتُ مثلـكم ، أسعى للاستمتاع بتلك الزخارف البرّاقة ، حتى تكشّفَ لى المجتمعُ عن حقيقته ، وبان لى زَيْفُه وبهتانُه . لقد وثقتُ بدنياكم هذه ، فأودَعْتها أعزّ ما أملك ، أودعتُها قلبى ، ولـكنها رَدّتْ إلىّ هذا القلب مطعوناً . . . إنى أكره دنياكم . . . أكرهها ! »

وأخفتْ رأسَها بين يديها ، ثم إذا هى تبكى . فوقفتُ أمامها حائراً جزِعاً ، وقد توزّعنى الألم . . وسرعانَ ماأخذتْ تهدّى من رَوْعها ، فكفكفتْ عبرتها ، وهى تقول :

« إنى آسفة . . . آسفة جدّاً على مابَدَرَ منى ! »

فقلت متلعثماً :

لا موجبَ للأسف مطلقاً . . . إنما . . . أأكونُ قد أسأتُ إليكِ على غير قصد ؟

— كلا . . . كلا !

وابتسمتْ ، فبهرتنى ابتسامتُها : لقد تجمعتْ فيها روعةُ الأحزان فى أنبل معانيها ! . . . فوقفتُ فترةً صامتاً أحدق فيها ، ثم أقبلت عليها فى تمهُّل ، وانحنيتُ على يدها ، فقبلتُها قبلةً رفيقة ، بثثتُها مايكنُّه لها قلبي من إجلال . . .

وتركتُ المكانَ على الأثر .

* * *

قضيتُ اليوم بأكله ، أفكر فى ماوقع لى مع « مس إيفانس » وأنا شديد التألمُّ لحالتها ، إذ وضح لى أنها تنوءُ بحزن دفين ، وتتعثَّر بخيبة فى آمالها ، ولما تزلْ فى اكتمال الشباب .

وانصرم اليوم التالى ، فلم أجسر على التحدث إليها ، واقتصرتُ على تحيتها بيدى ، أو الإيماء إليها برأسى ، فكانت تردُّ التحية بابتسامة حلوة .

وفى اليوم الثالث أطلتُ إقامتى فى الحديقة عامداً ، فلما رأيتُها مقبلةً ، ذهبتُ اليها وحييتُها ، ثم قلت :

إن الجوّ اليوم حارّ . . .

— أليس هذا عجيباً مع أننا على ارتفاع ألفى متر ؟

وصمتتْ لحظة ، ثم قالت :

لقد بحثتُ عنكَ أمسِ . . .

— تقصدينَنى ؟

فابتسمتْ ، وقالت :

نعم ، أنتَ !

واتجهتْ نحو مقعدها الطويل ، فأسرعتُ إليه وحملته . وسرت وإياها فى الطريق الضيق الملتوى ، المظلل بشجر الجَوْز ، المُفضى إلى ركنها المعهود . وأنا مُرْهفٌ سمعى ، أنتظر حديثها بصبرٍ ذاهب . ولكنها لم تتكلم ، فظَلِلتُ صامتاً . .

ولما وصلنا ، وجعلتُ أهيِّئُ لها المقعد ، تقدمت نحوى ، وأخذتْ بيدى ، وقالت فى لهجة مؤثّرة :

« فلنكن صديقَيْن ! »

فقلت متحمّساً :

« سيدتى . . . »

واحتبس القولُ فى فمى ، فلم أزدْ حرفاً . . . ولبثنا صامتين وقتاً ، وقد تمددت « مس إيفانس » على المقعد ، وانصرفتْ

تنظُر إلى السماء . وجلستُ أنا على كُومَة من الهشيم بجوارها .
وبعد حين سمعتها تتكلم ، وهى ما تزال إلى السماء ناظرة :
« ولكن لاتنسَ ياصاحبي أمراً واحداً . . . »
فقلت بلهفة :
وما هو ؟
— أننى إمرأةٌ بلا قلب !
فضيت أرنو إليها حائراً ، ثم تناولتُ يَدَها فى سكون ،
وجعلت ألاطِفها . وقلت ، وأنا أبتسم ابتسامةً عليها مسحة الخيبة ،
ولكنها مفعمةٌ بالإخلاص :
ثِقِ أننى سأحترمُ لك هــذا الشعور . . . اعتمدى على
صداقتى !
— شكراً . . .
وأسبلتْ جفنيها ، كأنها تستدنى النعاس . ومكثت أتمم
النظر فى وجهها الوسيم ، الصافى البشرة ، وأنا أناجى نفسى :
ماذا تخفى هــذه الصفحةُ الهادئةُ تحتها من تيّارات عاصفة
جارفة ؟ . . .
ثم نكستُ رأسى ، وجعلت أنبُشُ الأرضَ بعود يابس .

ووقع نظرى على كتاب « مس إيفانس » مُلقىً بجانب مقعدها ، ولم أكن قد انتبهت لوجوده . فتناولته ، فإذا به يبحث فى الفلسفة الصوفية . وطَفِقْتُ أقلّبُ صفحاته ، ثم استهوانى بحث من أبحاثه ، فانطلقت أقرؤه . وما كدت أنتهى منه ، حتى ابتدرَتْنى « مس إيفانس » تقول :

إنه كتاب لايوافق أميالك !

— ولكن موضوعَه طريف شائق . . .

— أتراه كذلك حقا ؟

— إنه يَضْطَرُّ القارئَ إلى التفكير فى مسائل قَلَّما تسنَح لفكره .

ثم صمتُّ فترةً ، وأنا أعبَث بالعود فى يدى . وتابعت قولى :

« إننا فى الواقع لايمكننا أن نصلَ إلى فهم هـــذا الوجود بالأقيسة المادِّيَّة وحدَها ، فيجب أن نتجردَ مما هو عالق بنا من . . . »

فراحت « مس إيفانس » تضحك . . . فقلت على الأثَر :

أتظنيننى غيرَ مخلص فى قولى ؟

— أرجو أن تكونَ مخلصاً !

فابتسمتُ ، وقلت :

إن الصوفية لتستهوينى حقًّا ، ولا سيما إذا أخذتُها عن أساتذةٍ مثلك !

— هذا غيرُ كاف ، ياسيدى . . . إن الصوفية تتطلب فداءً جسيما . وكبير على النفس أن ترضى بهذا الفداء الجسيم من تلقاءِ ذاتها .

— ولكن . . .

فتابعتْ قولها :

« قد تعترضُ المرءَ فى تاريخ حياته حادثة ، حادثةٌ واحدة ، تحوّل خطّةَ سيره ، وتحلّق به فى جوٍّ جديد يقسره على تغيير نفسيَّته . . . ومن ثم يتهيَّأُ لقبول الحقائق الصوفية بلا مكابرةٍ ولا عنادٍ » .

وطرق أسماعنا حفيفٌ فيما وراءنا من الأغصان . فالتفتنا معاً ، فإذا « حبيب » الخادم يتقدم من « مس إيڤانس » ويقول لها :

لقد حضر الدليل ، فهل تأذنينَ بمقابلته ؟

— فليأتِ !

وغاب « حبيب » هنيهةً ، ثم عاد ومعه رجل منبسطُ القامة

عريض الجوانب ، مكتَنِز العَضَلات ، له شارب غليظ ، كأنه مصنوع من الآبنوس ، ورقبة كأنها الجِذْع العتيق . . . ينظر إلينا نظراتٍ حادّة ، كأنه يزدرينا !

واقترب الرجلُ من « مس إيڤانس » وحيّاها ، فأحسنَتْ لقاءه ، ثم التفَتَتْ نحوى ، وقالت وهي تتلطّف في بَسْمَتِها :

« أقدّم لك دليلي الذي أعتمد عليه في ارتياد هذه المِنْطَقَة » .

ودنا الرجل منى ، وصافحَنى في شيء من التحفّظ ، وقال بصوت خشن ، وهو يفتِل شاربَه ، أو بالأحرى يداعبُه مزهُوّاً :

« محسوبك مجاعص » ، ابن الجبل . . . أعرف هذه الجهة ومخابئها وطرقاتها كما أعرف أصابعَ يدى . . . يمكننى — صيفاً وشتاء — أن أسْرِىَ في الليل كما أسير في النهار ، لا تَعُوقُنى ظلمة ، ولا رياح ، ولا لصوص ، ولا ضَوَارٍ ، ولا . . . »

وخشيتُ أن تمتد ثرثرته ، فتَعَلْتُ مقاطعاً إياه . وقلت :

« تشرفنا يا سيد مجاعص . . . ! »

والتفتُّ إلى « مس إيڤانس » فوجدتُها تضحك في صوت مكتوم ، وقالت لى :

« إنه كثير الفخر بنفسه ، ومظهره يدلّ على القسوة ، ولكنه

فى الحق طيبُ القلب . . . وعلى كل حال فهو رجل قد يُفيدنى فى رحلتى . . . »

— أىَّ رحلة ؟

— رحلة سأقوم بها فى هذه المِنْطَقَة . . لكشف أثر ثمين .

— أثر ثمين ! . . . وهل تتغيبِينَ طويلا ؟

— لا أدرى . . . ربما تغيبتُ أياماً معدودة . . . وربما . . .

ثم صمتت وهى تبتسم ابتسامةَ غامضةَ فيها شىء من الاستسلام للأقدار . فقلت لها :

ومن تصْحَبين ؟

— هذا المجاعص !

— وحدَه ؟

— نعم !

فحملقتُ فيها مدهوشاً ، فأتمتْ هى كلامَها قائلة :

« إن المخاطر تستهوينى . . . وكلما عظُمتْ أحسستُ رغبتى قد اشتدت فى التغلّب عليها » .

وانبعث « مجاعص » يحدث « مس إيفانس » فى شأن البغال التى يريد انتقاءَها للرحلة . وأفاض فى الحديث . فإذا به يلقى

محاضرة فى منافع البغل ، وما حبته الطبيعة من قوةِ بِنية ، واستعداد لتحمُّل المشاقّ ، ومهارة فى اختراق شعاب الجبال وتسلق صخورها : ثم انعطف بعد فراغه من ذلك إلى تقسيم البغال وَفْق ألوانها : فهناك البغل الأغَرّ ، والأشهَب ، والأدهم . فالأول عنيد حَرُون ، والثانى طائش ولكنه لا يخلو من جبن ، والثالث . . .

وما إن وصل فى حديثه إلى هذا الثالث ، حتى رأيت « مس إيفانس » قد قامت وقالت له :

إنى واثقةٌ بخبرتك ، فانْتَقِ لى ما يصلُح لرِحلتنا منها ، وأخبرنى بالثمن . ولاتنس الغِرَارات والخِيامَ . . . أتريد قائمة مفصَّلةً بما أطلب ؟

— ليست لى بها حاجة . . . إن القائمة فى رأسى ، لم يُنْجِبْ لُبنانُ ، رجلا أوسعَ منى خبرة ، ولا أقوى منى ذاكرة ، فاطمئنى من هذه الناحية . . . ألم أحدثْكِ بما وقع لى مع السائح الأمريكى « مستر استانلى » ؟

فبادرت « مس إيفانس » بالإجابة ، قالت :

نعم ، لقد سبق أن حدثتنى فى هذا . . . والآن ، إلى اللقاء .

— إلى اللقاء ، ياسيدى . لا تخشَىْ شيئاً ما دمتِ فى حِمَايَ . اعتمدى على الله ثم علىّ . . .

وانحنى أمام « مس إيڤانس » . ثم ما لبث أن دار على عَقِبَيْه فى الدَّرْب الملتوى .

وقلت لـ « مس إيڤانس » وأنا ما زلت جالساً على كُومَة الهشيم :

لا أدرى ما الذى يحملكِ على اصطحابِ مثل هذا الجلاّد ؟ ألا تخْشَيْنَه ؟

— لا أخشى أحداً من سكان هذا الجبل . . . إنى قد خَبَرْت طباعهم ، فإذا هم من أسلم الناس طَوِيَّةً . هؤلاء يا صديق يعيشون على الفِطْرة ، وقد حببهم حياةُ الجبل أنبلَ الخصال وأشرفَها . . .

— وهذه الرحلة ، وذلك الأثر الثمين . . . ؟

— إنها سلوة أدفع بها مَلَلَ الحياة !

وجاء فى ذلك الوقت « حبيب » يحمل البريد ، فأعطى « مس إيڤانس » رسالة ، ثم ناولنى لفيفةً تحمل طابَعَ بريد « مصر » ، وهو يقول مبتسماً :

أظنك الآن ، ياسيدى ، مرتاحَ الخاطر لوصول « الرّزْمَة » لقد سألتنى عنها كثيراً .

— لقد تأخر وصولها .

— لا تنس ، يا سيدى ، أن تحتفظَ لى بالصحف المصرية بعد مطالعتها .

— بكل سرور .

وكانت « مس إيفانس » قد فضّتْ رسالتها ، فأخذتْ تتلوها . ووجدتُ وجهها قد أشرق ، وعينيها تلمعان . وما إنْ أتمت قراءتها حتى قالت :

« إنهم حاضرون . . . هذا بديع ! »

ونظرت إلىّ ، وقالت :

المعذرة ، إذ أتركك الآن . . . إلى اللقاء »

— إلى اللقاء ، يا سيدتى . . .

والتفتّ نحو « حبيب » ، وقلت

« من هم الذين سيحضرون ؟ »

فمطّ الرجل شفتيه ، وقال :

« علمى علمك يا سيدى ! »

ورأيت طرفَ الرسالةِ المزقَ على خطوةٍ منى ، فأخذته ، وألقيتُ عليه نظرة ، فإذا هو يحمل خاتَم البريدِ السوريّ . أما العنوان فسقيم الخط ، مكتوب بالإفرنجية .

وسمعت « حبيب » يقول وهو متظاهر بانهماكه فى قَشْر عود يابس :

« ما زلتُ يا سيدى ، أنصَح لك بالابتعـــاد عن هذه السيدة . . . إن . . . »

فقاطعته قائلا :

أشكر لكَ ، يا حبيب ، أشكر لك . . . والآن أرغب فى أن تذهب إلى المطبخ ، وتُوصِى لى بصَحْنٍ من الأرزّ المسلوق فى العَشَاء .

— أرُزّ مسلوق ؟

— فى شىء من عُسْر الهضم !

— إذاً عليك بحبّة البرَكة . . .

— لا بأس ، جَهّزها مع الأرُزّ . . . اذهب فأنفِـــذْ ما أمرتُكَ به .

وذهب « حبيب » وبقيت بمفردى أتطلع إلى الأفق البعيد ،

وأنا أقلب الفكرَ فى هذه المُسَمَّيات : رحلة « مس إيڤانس » العجيبة ، وهذا الأثر الثمين المجهول ، والزُّوَّار أصحابُ الرسالة .

. . وأخيراً هذا « المجاعص » الذى يحمل وجهَ قاتل !

ولا أدرى كم مضى علىَّ من الوقت وأنا على هـــذه الحال . ورأيتُ الشمس تنحدر الهُوَيْنَى فى الأفق ، وقد أخذ يبتلعها خِضَمّ الضباب القانى ، المترامى بأطراف الوِدْيان ، الزاحفَ علينا مع طلائع الليل . ومرتْ علىَّ نَسْمَةٌ باردة اختلجَ على أثرها جسدى ، فقمتُ متباطئاً وأنا أجمع حولى ملابسى . . .

° ° °

وفى الصباح ، عند ما أحضر « حبيب » الفَطُور ، وقعتْ عينُه على رِزْمَةِ البريد التى وصلت إلىّ أمس من «مصر» ، وهى على حالها لم تُفَضّ ، فحدّقَ فىّ متعجباً ، فقلت :

« ليس عندى وقت لفضّها يا حبيب ! »

فهزّ رأسَه موافقاً ، وعيناه تنطقان بضدّ ما أبْدَى . ولمحتُ فى جيبه مجلة « الاستقبال » المصرية المعروفة ، فقلت :

« أجديد هذا العدد أم قديم ؟ »

فتثاءب وتمطّى طويلا ، وقال وهو يأكل أطراف الكلمات من فَرْطِ كسَلِه :

آخر عدد يا سيدى . . .

— ومن أين حصلتَ عليه ؟

فتضاحك ، وأسند جسمه المجهودَ إلى الحائط ، وقال :

— أخذته خُلْسةً من «الأستاذ كنعان» !

— خُلسَة ؟

— لا حرج علىَّ فى ذلك ، يا سيدى . إن صحف الأستاذ تَظَلُّ فى لفائفها أبد الدهر . وعند ما يضيق بها ذَرْعُه يرصُّها تحت السرير ، لتكونَ طُعْمةَ الفيران . . . ألستُ أحقَّ من الفيران بها ؟

— طبعاً ياحبيب . لقد أحسنتَ صنعاً !

— ولكننى مع ذلك أحبُّ «الأستاذ كنعان» ، وأعترف بأنه رجل عظيم !

— إنه عالم كبير . . .

— وهو كريم الأخلاق جداً . أتُصَدِّقُ أنه قضى ليله أمسِ فى صحبتى ، نحتسِى العَرَق ، ونسمُر حتى السَّحَر ؟

وفَغَرَ فاه بغتةً عن تَثاؤُبَةٍ كريهة بصوت مُفَزِّع . وسمعنا صوتَ « الشيخ عاد » يناديه ، فحاول استعادةَ نشاطه ، وهرولَ خارجاً من الحجرة ، وهو يتعثر فى خطاه .

وخرجتُ إلى الشرفة ، وأرسلتُ الطَّرْفَ حولى أتأمّلُ جمالَ الطبيعة فى ذلك الصباح البديع . وكان بعضُ الرعاة من البدو يضربونَ خيامَهم فى سفح الجبل البعيد . فأخذتُ مِنْظارِى ، وبقيتُ أراقبهم فى اهتمام . وأنا أغبطهم على حياتِهم الساذَجَة السهلة الصادقة ، وتمنيت لو استطعت أن أحيا مثلَهم وقتاً من الزمن!

وتركتُ الشرفة ، وخرجت إلى الحديقة بخُطاً هَيِّنَة ، وقد اعتزمت أن أقضىَ شَطْراً من يومى فى الخَلاء ، أرتادا لمِنْطَقَةَ منفرداً ، كى أستمتعَ بلذةِ الوَحْدَةِ بين أحضان الطبيعة .

وبينا كنت أخترق الحديقة ، قابلتُ « الأستاذ كنعان » ، يحمل وِسادةً تحت إبطِه ، وهو يجر نفسه فى مشقة . . .

فتصافحنا ، وقال لى :

— إلى أين ؟

— بى رغبة فى ارتيادَ هذه المنطقة التى تحيط بنا . أليس من العار أن أعيشَ فيها ، دون أن أعرفَ عنها شيئاً ؟ أتصدّق أننى لم أفارقِ الفندقَ وحديقتَه منذ قَدِمتُ ؟

فنظر إلىّ بعيونه المنتفخة المُطبَقَة الأجفان ، وانفرجت أشداقه المترهلةُ بقوله — وهو يحاول نَصْبَ قامتِه — :

لقد أحسنتَ صنعاً ، يا ولدى ، بتدارُكِ هذا النقص . . . إنك لو علمتَ ماذا تحوى هذه المِنْطَقةُ من كنوز طبيعية نادرة ، لاستحوَذَتْ عليك الدهشة والتعجُّب !

— أقُمْتَ فيها بأبحاث علمية يا أستاذ ؟

— إنك لو سألتَ حَصْبَاءَ هذا الوادى ، واستجوبْتَ صخورَ ذلك الجبل ، لروتْ لك ما عانيتُ من مشقة فى بحثى واستقصائى . أنت تجهل بلا ريب أنى أُعِدُّ محاضرةً فى طبقات أرض هذه المِنْطَقة ، وأطوارها فى التاريخ . . .

— بحث ممتع بلا ريب !

— ولكنه متعب يا ولدى ! أتصدّقُ أنى قضيتُ ليلةَ أمسِ — لم يَغْتَمِضْ لى جَفْن — وأنا منكبٌّ على أوراقى وكتبى ، والقلم لم يبرَحْ يدى لحظة ؟

— كان الله فى العون !

— والآنَ أنا فى حاجة إلى التمدُّد قليلا فى الحديقة . أليس لأبداننا علينا حق ؟

— دون شك يا أستاذ . . . ولماذا تركتَ حجرتك ؟

— إنها بجوار المطبخ ، فالدقّ لا ينقطع فى ليل ولا نهار .

وظهر بيننا « الشيخ عاد » بغتة ، وسمعناه يقول ، وحبات السُّبحة تتنقّل بين أصابعه :

« ستنعَم يا أستاذُ ، من الغد ، بنوم هنيّ . لقد أمرتُ بنقل المطبخ إلى مكان بعيد . . . »

فقلتُ :

« حقّاً إن الأستاذَ لاينال حظّه من هادىء النوم ، مع أنه فى حاجة إلى الراحة . إنه دائم التجوال فى المِنطَقة المحيطة بنا باحثاً منقّباً ، يدرُس طبيعة الأحجار » .

فقال « الأستاذ كنعان » موجهاً كلامَه إلىّ :

« أحسبك سوف تحذُو حذوِى » .

فالتفتَ إلىّ « الشيخ عاد » وقال :

« ماذا ؟ ألكَ أنت أيضاً شغَفٌ بهذا العلم ؟ »

فقص « الأستاذ كنعان » على « الشيخ عاد » رغبتى فى ارتياد هذه المِنطَقة . فقال الشيخ :

« كلكم هذا الرجل ... غير أن « مس إيفانس » تفوقكم فى هذا الشغف ، ولها غرام جنونى بالكشف عن الآثار المجهولة » .

فنظرت إليه متسائلا ، فروى لى كيف أنها كلفته مساعدتها فى الكشف عن أثر قديم ، يقال إنه قائم خلف هذه الجبال .

* * *

وتركت « الأستاذ كنعان » يهنأ بنومه اللذيذ ، وخرجت من الفندق ، ووقفت قليلا أرسم خطة السير . وتلفتُّ أحاول تحديد الأمكنة ، ونور الشمس يسطع بشدة فى ذلك الفضاء الفسيح . . . فدفعت بقدمى ، وسرت أضرب فى فلوات هذه البقعة الجرداء ، على غير هدى ووجدتنى أسائل نفسى : ترى هل أقابلها ؟ . . . وسرت ، ثم سرت ، والسؤال لا يفتأ يتردد فى خاطرى . . . أتكون قد نصبت خيمتها اليوم بالقرب من مضرب هؤلاء الرعاة فى ذلك المكان القصى ؟

وبعد لأى وصلت إلى هنالك ، وجبت الناحية ، فما تركت موضعاً لم أزره ، وماوقع بصرى إلا على هؤلاء الرعاة المتقشفين بوجوههم الطويلة المشدودة البشرة ، وحولهم أغنامهم الهزيلة .

وكلابهم الضامرة . وقد تجمع القوم إلى ، يرحبون بى ويبالغون فى إكرامى .

واتجهت مرة صوب الشمال ، ومرة نحو الشرق ، وثالثة إلى الجنوب ، وهلم جرا ، حتى أحسست قدمى لا تستطيعان حملى . فأخذت سمتى أخيراً إلى الفندق ، وقصدت من فورى إلى الحديقة ، وذهبت حيث « الأستاذ كنعان » ، فوجدته يغط فى النوم . فاخترت مكاناً غير بعيد منه ، وارف الظل غزير العشب ، فتمددت عليه ، ورحت فى سبات .

○ ○ ○

ولما حان وقت الغداء ، جاء « حبيب » فأيقظنا . . . ولم تشاركنا « مس إيفانس » فى الطعام . وبعد أن انتهينا من الأكل ، ترامیت على مقعد مريح ، وانطلقت أدخن وأتناول القهوة . وخرج الجميع فلم يبق فى الحجرة إلا أنا و « حبيب » وكان ينظف المائدة . ولضيق المكان فى الفندق ، كنا نتخذ حجرة الطعام بهواً للمسامرة والتدخين . وكان حبيب « حبيب » منتفخاً بالصحف والمجلات . وسمعته يُفيض فى

حديث لا مُنْتَهَى له ، لم أعره اهتمامى ، إذ كنتُ مشغولا بالتفكير فى بعضِ شأنى .

ولما انتهتْ مهمَّتُه ، ورأى منى إعراضاً ، تركنى فى الحجرة وخرج ، فمكثت وحدى أنعم بتدخين لفائفى . وفيما كنتُ على هذه الحال ، شهدتُ « مس إيفانس » تدخلُ الحجرة ، فوقفت على التوّ أحييها ، فقالت :

أخشى أن أكونَ قد قطعتُ عليك سبيلَ تفكيرك !

— لم أكن أفكّر فى شىء بعيدٍ عنك !

— كيف ؟

— أصرح لكِ أنى كنت أفكر فى رحلتِك .

— أإلى هذا الحد تَهُمُّكَ هذه الرحلة ؟

— أعترف لكِ بأنى كثيراً مافكرتُ فيها . . .

— وكيف تَراها ؟

— أراها مخاطرةً تستوجبُ الحذَر .

فضحكتْ طويلاً ، وقالت :

« إنك تبالغ . . . »

ثم جلستُ ، وأشعل كلٌّ منا لفافة ، وغمَرَنا الصمتُ هُنَيْهَة . وأخيراً تكلمتُ « مس إيڤانس » وهى تنفُث دخانَ لفافتها فى تأنٍّ . وقالت :

لعلك تعجَبُ إذا أخبرتك بأنى صرفت أكثرَ من عام ، وأنا أشتغل بجمع المعلومات عن هذا الأثر الثمين الذى حدثتُكَ فى شأنه ، حتى استطعت أن أحقق موضعَه . . .

— وكيف انتهى إليكِ خبر هذا الأثر الثمين ؟

— حضرتُ فى الصيف الماضى إلى « لبنان » أنشد العزلةَ فى هذه البقعة الساكنة ، فسمعتُ من بعضهم قصة عن « قصر مسحور » تسكُنُه الأشباح ، ينطوى عليه بطنُ الجبَل الذى يحيط بنا . فشُغِفت بهذه القصة ، واعتزمتُ ارتيادَ هذه البقعة ، لاكتشافِ موضع القصر ، وإماطةِ اللثام عن سرِّه الخفىّ . . .

فقلت ، وأنا متحير :

أيكونُ هذا الأثرُ الثمين وقصرُك المسحورُ شيئاً واحداً ؟

— هو ذلك !

فصمتُّ حينا ، وأنا أحدّقُ فى وجه « مس إيڤانس » لأتثبتَ من صدق قولها . وقد خطَرَ ببالى — أول وهلة — أنها

تهزأ بى ، فرأيت وجهها ينطِقُ بصدقٍ وإخلاص . فقلت لها :

أتعتقدين إمكانَ رؤيةِ الأشباح ؟

— لم أر فى حياتى حتى الآن واحداً منها !

ومكثتْ تحدّقُ فى دُخان لفافتها ، وتقول :

« إنما قد . . . »

فقلت لها :

أواثقةٌ أنت من وجود هذا القصر؟ أخشى أن تكونَ القصة أسطورةً من الأساطير !

— كلا ، لقد تأكد لى وجودُه ، وهو قائم فى بقعة موحشة نأتْ عن العمران . . .

— وهل حدّثكِ فى شأنه شخص رآه بعينه ؟

وما كدت أتمُّ جملتى ، حتى قدِمَ علينا « حبيب » وقال لـ « مس إيڤانس »:

« الثلاثة الزُّوّار الذين تنتظرينهم قد حضروا يا سيدتى » . . .

فالتفتت نحوى « مس إيڤانس » وهى متهللةُ الوجه ، وقالت :

« إن هؤلاء الزوارَ يستطيعون الإجابة عن سؤالك ، يالَهُ من اتفاقٍ غريب ! »

وقالت لـ « حبيب » :

« أدْخِلْهم حالا ! »

وانثنَتْ إليّ تقول :

« لقد حضروا في الموعدِ الذي حدَّدوه لي في الرسالة . ألا ترى أنهم جديرون بالإعجاب ؟ »

وبعد قليل دخل الحجرةَ ثلاثةُ رجالٍ من العرب، لا يختلفون في زِيِّهم وسَحنَتِهم عن رُعاة الغنم . . . وأرسلتُ عيني فيهم ، فلم أستطع أن أتبيَّنَ فرقاً يُمَيِّز بعضَهم من بعض ، فكأنهم توائمُ . وأقبلوا علينا ، فحيَّوْنا أحسنَ تحية ، ووزعت « مس إيفانس » عليهم اللفائف ، وأمرتْ لهم بالقهوة ، وبدأت تحدِّثُهم بعربيتها المُتَهَشِّمَةِ ، في لهجةٍ لطيفة . . .

وألقيتُ سؤالي عليهم ، فوجدتُ واحداً منهم قد نهض قائماً ، وتقدم من « مس إيفانس » ووجهه يَفيضُ حماساً ، وهو يقول :

« لقد كنتُ واحداً من عشَرةِ رجالٍ ، قاموا لكَشْفِ هذا القصر ! »

فقلتُ له :

وهل وصلتُم إليه ؟

— كدنا ، ولكننا لم نفعلْ !

— لماذا ؟

— لقد منعتْنا شياطين القصر !

فتضاحكتُ مقهقهاً، فدنا الرجلُ منى ، حتى لم يَعُدْ بينى وبينه إلاّ خطوةٌ واحدة ، وقال ، وقد اشتدت لمعةُ عينيه :

« أقسم لو رأيتَها وهى على ذِرْوة الجبل تلق علينا الحجارةَ الغليظة ، لما بَدَرَتْ منك هذه الضّحكة ! »

فقلت مُحاجياً :

« وهل رأيتَها أنتَ بعينىْ رأسِك ، وهى تقذِفُ عليكمُ الحجارة ؟ »

فانتفض الرجل انتفاضةَ المحموم ، ودقّ صدرَه بيدَيْه . . . وقال :

« أوَتظنُّنى كاذباً ؟ »

وكان « حبيب » قد أتى بالقهوة ، فعاد الرجل إلى مجلسه . . . والتفتتْ إلىَّ « مس إيفانس » وقالت فى طُمَأنينةٍ موفورة :

« إنهم لايكذبون . . . »

ثم سألتُه فى تفاصيل ذلك الحادث ، فطَفِقَ يقول :

« كان ذلك منذ خمسةٍ وعشرين عاماً ، وأنا فى أنضرِ عمرى »

أرسلَنا المُتَصرِّفُ مع بعض رجال الدَّرَكِ لنبحث عن هذا القصر ، وكان قد اتصلَ بعلمه أنه يَحْوِي كنوزاً . فانطلقنا في شِعابِ هذا الجبل الأغبر ، كأننا الذئابُ الجياعُ تبحث عن فريسة . وقضينا عَشَرَةَ أيام ، حتى كدنا نَهْلِكُ . وما إن شارفَتْ مهمتُنا تمامَها ، وأوشَكْنا أن نصلَ إلى القصر ، حتى أحسسنا الجبلَ يَتَزَلزَلُ ويتفككُ حولَنا ، وسمعنا دَوِيًّا قاصفاً ، وانطلقَت الحجارة هاويةً علينا ، كأنها طَلقَات الرَّصَاص . وصَرَخَ أحدُنا : « الشياطين ترجُمُنا . . . الهرب ! الهرب ! »

فرفعتُ رأسي فإذا أشباح سودٌ هائلة يندلع من عيونها اللَّهَب ، تتضاحك في بشاعة، وترمينا بكُتَل الحجارة الضخمة . فكلما أرادَ الهربَ من هذه الكُتَل واحدٌ منا ، رمى بنفسه في الهاوية ، فلا يصل إلى قاعها إلاّ محطَّماً . . . لقد قُضِيَ على زملائي كلِّهم في لَحَظات معدودة ، ولم ينجُ أحدٌ غيرى . نجوتُ وأنا في حالةٍ يَفْضُلني فيها الميّتُ ! »

فقلت له :

وهل رأيتَ بنفسكَ القصرَ ؟

— أصدقُكَ القولَ . . . إني لم أر شيئاً في شكل قصر .

ولـكنني أبصرتُ جزءاً من جبل به فجوات كالتى تكون عادةً فى الجبال . وقد أشار إليها رئيسُ الدَّرَك وهو يقول :

« هذا هو القصر المسحور ! »

وهنا سألتْه « مس إيڤانس » : هل يرضى أن يرافقها فى رحلتها ؟ فاعتذر بكبرِ سنه وكثرةِ من يعولهم من أفراد أسرته . ولـكنه وعدها أن يقدِّمَ لها كلَّ ماعنده من معلومات ذاتِ شأن .

وروى لنا ثانى الزوار حكايةَ شابٍّ استهوتْه قصة القصر المسحور ، فخرج منفرداً يطلبُ كَشْفَه ، ولـكنه لم يَعُدْ ، ولم يَسمع عنه أحد خبراً . فنظرتُ إلى « مس إيڤانس » وقلتُ :

« على الرغم من كل ذلك تستهدِفينَ للخطر ، وتُصرِّينَ على الذهاب لاكتشافه ! »

فابتسمتْ ابتسامة عريضةً ، وقالت :

« قلتُ لكَ إننى أهوَى المخاطر . . . أضف إلى ذلك أن اعتقادى وثيق فى القضاء والقَدَر . . . »

ومع معارضتى لها ، ودهشتى لإصرارها ، كنت فى صميم نفسى معجَباً بشجاعتها النادرة ، موافقاً على رحلتها الخطيرة ، وقلت لها :

إذا صحَّ وجودُ هذا القصر ، فسيكون من أكبر العجائب !

— وهذا ما يحفزنى لاكتشافه .

— هل وصلتَ إلى معرفة تاريخه ؟ فى أىّ العصور بُنِىَ ؟ ومن شيّده ؟

— لدىّ معلومات مُهوّشة فى هذه النقطة ، ولكن الشيخ وعدنى أن يأتىَ لى بالخبر اليقين . . .

* * *

وفى الغدِ شاركتنا « مس إيڤانس » فى طعـــام الفَداء .

وكان حديثنا على المائدة حديثاً مألوفاً ، لم يتعدّ اعتدال الجوّ ، وطِيبَ الفاكهة ، وجودةَ المياه . ولما انتهينا من الأكل ، دعانى « الشيخ عاد » لتناول القهوة فى حجرته الخاصة ، ودعا معى « مس إيڤانس » و « الأستاذ كنعان » . وجلسنا على الوسائد الأرضية المريحة ذات المساند الليّنة . وكانت حجرةً بديعة ، كلُّ ما فيها ينطق بذوق شرقى أصيل .

وأوصى « الشيخ عاد » بأن تجهز القهوة والنراجيل ، وهو يقول لنا :

« لدىّ طِباق عجميّ فاخر ، لا مثيلَ له فى الشام كلها ! »

وأخرج شُبْحته ذات الحباتِ الحمرِ الكبيرة اللامعة ، وأخذ يداعبها بين أنامله هنيهة ، ثم قال فى صوت رفيق ، ولهجة رزينة

« حقاً يا « مس إيڤانس » إن حكايةَ قصرك المسحور أعجوبة الأعاجيب . كنت معتقداً قبل تكليفكِ إياىَ استقصاءَ خبره ، أن قصته خرافةٌ من الخرافات الشائعة ، فلم أعرها اهتماماً مطلقاً ، ولكنى الآن بعد أن بحثت الأمر جليًّا أجدُنى أمام أثر طريف له تاريخ عجيب ! »

فأشرق وجه « مس إيڤانس » والتفتت إلىّ متسمة . وتكلم « الأستاذ كنعان » فقال :

« لقد درستُ آثارَ سوريَّة جميعها ، ومن بينها هذا القصر ، وإنى لأدهش كيف خَفِىَ أمرُه عليكم إلى هذا الحدّ ! »

فابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة ، فيهـــا إشفاق ومداعبة ، وقال :

« إذاً حدّثنا أنت . . . إننـا لفى شوقٍ عظيم لسماعِ ما عندك ! »

وفى هذا الوقت جاء « حبيب » بالقهوة ، ثم خرج . . . وعاد بعد وقت قصير يحمل الفراجيل الأربعَ ، ووضع أمام كلٍّ منا ، احدةً منها ، ثم مضى . . .

وعمّ الصمت المكانَ فترةً من الزمن ، ثم بدأت الحجرة

تتجاوب بقرقرة هادئة ، كأنها ضحكات مكتومة من كائنات غير منظورة ! . . . وأخـــذتْ تنعقد أمامنا وفوقَ رءوسنا سحُب رقيقة ، فتمتد وتغلظُ تارةً ، ويندمج بعضها فى بعض تارةً أخرى ، فتبدو لنا كأنها أشـــباح عجيبة تزدحم علينا ، لتصْغِيَ إلى ما نتحدّث به فى أمر هذا القصر المسحور !

ونَحّى « الأستاذ كنعان » فمه عن مَبْسِم النارجيلة ، وقال :

« كان يجدُر بكم أن تسألونى فى هذا الأثر العظيم . إنه من بقايا الرومان ، وعمارته بيزَنطِيَّة بحتة ، والذى شيَّده الإمبراطور يونان . . . »

فقلت له :

« ولكننا ، يا أستاذ ، أمام قصر حديث ، بناه أحدُ شيوخ الجبل ! »

فزَوَى « الأستاذ كنعان » ما بين حاجبَيْه ، وتحركت شفتاه حركة إنكار ومعارضة ، وانهمك فى نارجيلته يستمع إلى قرقرتها . . .

ووصل « الشيخ عاد » ما انقطعَ من حديثه ، قال :

لقد بَنى هذا القصرَ رجُلٌ يسمى « الشيخ بشير الصافى » .

كان شيخا من شيوخ الجبل المشهورين ، موطنهُ فى الجنوب . فليس هو من أبناء هذه الجهة . لذلك ظلَّ تاريخه لنا نحن سكانَ الشَمال محوطا بالأسرار . وكان الرجلُ عظيمَ السلطان على بنى قومه ، توازِرُه عشائرُ شتى ، وله مع الدولة العثمانية مواقف مشهورة . . . وكان الولاة يرهبون جانبه ، ويجاملونه ما استطاعوا ، ويضمرونَ له الشرَّ للإيقاع به عنـــد إمكان الفرصة . ولـكن فطنة الرجل وسعَةَ حيلته ، جعلته يخشى أن يَقلبَ له الدهرُ يوما ظَهرَ المِجَنِّ ، فاختار مكاناً فى ناحيتنا الموحشة المنعزلة ، فى ركن يُخفيه بطنُ الجبل ، ويصعب الاهتداء إليه فشيَّد فيه قصراً محصَّنا ، اتخذَه ملجأ يعتصِمُ به هو ومن معه ، إذا اضطرهم الأمر إلى الاستخفاء . »

فسألته « مس إيفانس » :

وهل التجأ فعلا إلى هذا القصر ؟

— لا أدرى على وجه التحقيق .

وقلت :

« الغريب فى هذه المســـألة أن يشيدَ شيخ مشهور من مشايخ هذا الجيل ، ذلك القصرَ الغريب ، ثم يَظلَّ أمرُه خفيًّا لا يكاد يعلم به أحد ! »

فقال « الشيخ عاد » :

« إن الأسرار تُحيطُ بذلك القصر دائماً منذ بَدْئه . وهذا ما أراده صاحبه له . ففى الوقت الذى كان فيه يُبنَى — أو بالأحرى : يُنحت ، إذ أنه منقور فى صميم الجبل — لم يكن أحد من أبناء هذه الجهة يعلم سرَّ بنائه . وهكذا ظلت حقيقتُه لغزاً من الألغاز ، وأصبح عند بعض الناس خرافةً ليس له وجود ، وعند بعضٍ آخرين مكاناً تَعْمُرهُ الشياطين ! »

فقال « الأستاذ كنعان » فى اهتمام :

« وهل الشياطين فيه حقًّا ؟ »

فابتسم « الشيخ عاد » وهو ينظر إلى « مس إيڤانس » وقال :

« هذا ما ستحققه لنا مس إيڤانس ! »

وتَجمْجَمَ « الأستاذ كنعان » وهو يرسل الدُّخان فى تَعَبٍ :

« لم أسمعْ فى حياتى بـ « بشير الصافى » هذا مُشَيِّدِ القصر » ولم أقرأ شيئاً يتعلَّقُ بحوادثه مع الدولة . »

فقال « الشيخ عاد » وهو يحرِّكُ حباتِ سُبْحَتِه مبتسما :

« ليس هذا ذنبَ الرجل يا أستاذ ! »

ثم استدرك على جملته ، فقال :

« لا تنسَ أن شخصية « الشيخ بشير » تكاد تكون من شخصيّات الأساطير ! »

وسألت « مس إيڤانس » الشيخَ ، قائلةً :

ومن يمتلكُ القصرَ اليومَ ؟

— لا أحد !

— أليس للرجل ذُرِّيَّة ؟

— كان له حفيد ، انتهت حياته بفاجعة أليمة !

— كيف ؟ !

وحدَّقنا جميعاً بأبصارنا فى « الشيخ عاد » ، ورأيت « الأستاذ كنعان » يُنْصِتُ إليه فى شَغَف ، على تظاهره بقِلّة الاكتراث. واعتدل الشيخ فى جِلْسَتِه متربّعاً ، وجَذَبَ نفَساً طويلا من النارجيلة ، فانبعث لمائها هدير عال ، كأنما هى أيضاً تطالبه أن يَروىَ لنا حكايةَ هذه الفاجعة !

قال الشيخ :

« قصة هذا الشاب الذى لَقِىَ حَتْفَه ، وهو فى العشرين من عمره ، يرجع عهدها إلى ما قبل ثلاثين عاماً أو أبعد . كان اسمه « يوسف الصافى » ، ورث عن جدّه الشهامة والزعامة ،

كما ورثَ عنه ثروةً جليلةَ القدر . ويؤكد الناسُ أنه لو هادنته المقادير حيناً لبزغَ نجمُه ، ولأصبح أميراً على هذا الجبل . ولكن . . . ولكنه الحب الذى كان مبعثَ نكبته ! لقد هام الشابُ بفتاة من أسرة عريقة ، هام بها حُبّاً جنونيّاً ، وبادلته الفتاةُ الغرام ، فأحبّته حبَّ عبادة . وتناقل الناسُ أخبارَ حبّهما العُذْرِيّ الرائع كما يتناقلونَ الأقاصيص ، وأصبح العاشقان بطلَين من أبطال الهوى ، كقيسِ بنِ المُلوّحِ وليلاه ، وجميلٍ وبُثَيْنَتِه . ورفضَ الأبُ أن يزوج ابنته « يوسفَ الصافى » وتتابعت الأيام ، وأُعلِنَت خِطْبَةُ الفتاةِ لشابٍ آخر . . . وحلتْ أخيراً ليلةُ الزفاف . وبينما كانت العروسُ فى مِنَصّتها محفوفةً بأفراد أسرتها وصويحباتها تنتظرُ عَرُوسَها ، إذ ظهر « يوسفُ » أمامها ، لا يدرى أحد من أين جاء . . . يزعم ناس أن الأرض انشقتْ عنه ، ويزعم آخرون أن الجدارَ انصدعَ فظهرَ منه . . . ولبث الناسُ فترةً فى ذهولهم مصعوقين من هذه المفاجأة . وما هى إلا أن أخرج « يوسف » من صدره غدّارةً كبيرة ، وصوّبها الى الفتاة فأرداها قتيلا ! . . .

واستخفى من حيث أتى ، لا يعرف أحد كيف خرج ، وأىّ طريق سلك ؟! »

وصمت « الشيخ عاد » لحظةً ، أمر فى أثنائها « حبيب » بأن يغير لنا بَجْرَ الرواجيل . واستأنف الشيخ قائلا :

« وبعد انقضاء أشهر على هذه الحادثة ، روى النـاس أنهم وجدوا جثةَ « يوسفَ » مطروحةً بجوار جدول من الجداول ، وتحققوا أنه قتل نفسه برَصَاصةٍ فى القلب ، وبموته انقرضت أسرة « الصافى » ، وانطوى مجدُها العظيم . . . . »

وسمعت « مس إيڤانس » تقول :

والقصر ؟

— إن الحـكومة لم تُعْنَ بأمره ، وقد تكون اهتمت بموضوعه وقتاً ما ، ثم أهملَتْه لخَـطَرِ موقعه .

— وهل سكن « يوسف » القصرَ قبل وقوع الجريمة ؟

— يشاع أنه سكنه فترةً من الزمن ، وكان يُعِدُّهُ لقضاء شهر العسل فيه .

فغمغمتُ :

« يالـغَرابةِ أطواره ! أيبنى قلعةً في وسط الجبال القاحلة ، لتكون مقرًا لعروسه ؟ »

فقال « الشيخ عاد » :

« الجنون فنون ، ياسيدى ! »

وقالت « مس إيڤانس » :

« ربما ضم هذا القصرُ آثاراً ووثائقَ تكشِفُ السِّترَ عن بعض الخفايا في قصة العاشقَيْن ! »

فأجابها الشيخ :

« هذا محتمَل ياسيدتى . . . »

ولفَّنا جميعاً صمتٌ مديد ، فليس من صوت في الحجرة سوى قرقرة الماء في جوف النراجيل ، وزفير أنفاسنا نُرسلها من أفواهنا ممزوجة بالدخان المُعَطَّر الشَّذِىّ .

وكانت الشمس قد آذنتْ بالمغيب ، فانعكس لونُ الشفق — الذى يغمر الأفُقَ البعيد — على نوافذِ الحجرة ، فتضَرَّجتْ أركانها بلون أرْجُوانِىٍّ فيه رَوْعَةٌ وسحر .

وخرج « الشيخ عاد » من صمته ، يقول لـ « مس إيڤانس » :

متى تبدَئين رِحْلَتَكِ ؟

— عقبَ انتهاء «مجاعص» من إعدادالدوابّ والمَؤُونَة....
أيضايقُكِ أن يكونَ فى صحبتِكِ شخصٌ مخلِصٌ، ربما أدّى إليكِ بعضَ الخدمات؟

فنظرتْ إليه مبتسمة، وفَطِنَتْ إلى مايَرْمِي إليه، وقالت:

«إنى أرحب بكَ من أعماق قلبي!»

وتنحنحت طويلا، ثم قلت:

«لقد استهوَتْني قصةُ هذا القصر، ويلوح لى أن...»

فقاطعتنى «مس إيڤانس»، وقالت وهى ما تزال تبتسم:

«ويسرنى أيضاً أن تَنْضَمَّ الينا...»

ونظرنا نحن الثلاثةَ إلى «الأستاذ كنعان» فألفيناه منهمكا يدخّن النارجيلة، أو بالأحرى متظاهراً بالانهماك... فقال «الشيخ عاد»:

«أكبر ظنى أن الأستاذ يرحب بصحبتنا... ستجد، ياأستاذ، فى هذا القصر مادةً تاريخيَّةً طليِّةً تَزِيدُ بها أبحاثَكَ الشائقة!»

ورفع الأستاذ وجهَه المتجَهِّمَ نحوَنا، وابتسم ابتسامةً مقتَضَبة، وقال فى شيء من الاضطراب:

« هذه رِحلة تتفق وأميالى كلّ اتفاق ! »

* * *

ووكلت « مس إيڤانس » أمرَ قيادة البَعثة ، وإعداد مُعدَّاتها إلى « الشيخ عاد » . . . وقد قررنا ألاّ يكونَ لنا تابعٌ سوى « مجاعص » وألا نأخذَ من الدواب غيرَ بغلتين ، واحدة لحمل الخيمة والمئونة ، والأخرى نتناوبُ ركوبَها . . .

٢

استيقظتُ فى اليوم المحدود مبكّراً ، فى الخامسة ، وكان يغمُرُنى انشراح عظيم ، وخرجت الى الشُّرفة أستنشق نسمَ الصباح الباردَ فى شَغَف ، وأدور بعينى فيما حولى أستمتعُ بجمال الطبيعة الخلاب . ثم عدت أتناول فَطُورى من الفاكهة واللبن الرائب .

وعند ما حلّت السادسة ، كنتُ فى وسط الحديقة منتظراً الرّفاق ، وبجوارى حُزمةٌ تحوى الضروريَّ من ملابسى . ولم يَطُل انتظارى ، فقد ظهر « الشيخ عاد » و « مس إيڤانس » . . . وكان « الشيخ عاد » يرتدى ثياباً عربيةً جميلة : كوفيَّةً زاهية اللون حولها عقال مُقصَّب ، وسروالاً من الجوخ الأسود مطرَّزاً بوَشْيٍ متناسق ، وعَبَاءَة من الحرير ناصعةَ البياض . . . أما « مس إيڤانس » فقد ارتدت صِدَارَ صوفٍ « بول أوفر » وسروالا مما يُلبَسُ لركوب الخيل ، وقبعةً من « الفلين »

عريضةً بيضاء ، وحذاء عسكريًّا يصل حتى الرُّكبة . فكانت بديعةً فى ذلك اللبوس الرياضىّ ، وازدادت فى عينى وسامة وحسناً .

أما أنا فكانت ملابسى فى جملتها عادية ، ماعدا القبعةَ الغريبة .

وتصافحنا ، ونحن مشرقو الوجه ، كأننا فى يوم عيد . .

وقلت لـ « الشيخ عاد » :

هل أُعِدَّ كلُّ شىء ؟

— كلُّ شىء مُعَدّ .

— والأستاذ كنعان ؟

— لم يظهر بعدُ .

وقالت «مس إيفانس» :

« نذهب إليه . . . »

وقصدنا إلى حجرة « الأستاذ كنعان » ، فراعنا صوتٌ غريب يشيع فى أرجائها ، فأنصتنا ، فإذا به غطيطٌ مزعج ، يعلو ويهبط فى نغمات شاذّة ، وفى حشرجةٍ مستقيمة . فتقدم « الشيخ عاد » ودق الباب ، فلم يجبه إلا الغطيط ، وتابع دقه ، والنائم على حاله يملأ الجوَّ بصوته الكريه وأنفاسه الجافة ...

واخيراً تقدمتُ و « مس إيڤانس » نعاوِنُ الشيخَ في دقّه الباب ... ولـكن لا حياةَ لمن تنادى !

وقامت بى رغبة صادقة في استطلاع سرّ هذا الغطيط غيرِ الطبيعىّ . فاستأذنتُ صديقتى وصديق ، وجعلتُ أنظر من ثَقْبِ المفتاح ، فإذا بى أرى « الأستاذ كنعان » جالساً على سريره يتميّزُ غيظاً ، وهو منهمك فى إرسال غطيطه العجيب ، يوهمنا به أنه مستغرق فى نوم عميق . فرفعتُ رأسى ، وأشرت لـ « مس إيڤانس » أن تنظُر ، ففعلت ، ثم أشارت هى إلى « الشيخ عاد » أن ينظر ، ففعل . . . وتبادلنا النظراتِ المصحوبةَ بالابتسامات ، وتركنا المكان ، نمشى على أطراف الأصابع .

* * *

كان ينتظرنا — عند مَدْخل الفندق — « مجاعص » بالبغلتَيْن . وقد لاحظتُ أنه اعتنَى بفَتْل شاربه ، وإكساب وجهه مظاهرَ العظمة الـكاذبة . وبعد أن تفقد « الشيخ عاد » لوازم الرّحْلة ، أصدر أمره بالمسير ، فسرنا . . . « مجاعص » والبغلتان فى المقدمة ؛ ثم « الشيخ عاد » فـ « مس إيڤانس » ، وأنا معها فى المؤخرة . . . وقد أُعِدّت إحدى البغلتَيْن للركوب ، فمن أحسّ منا تعبا فهى

له ، وأما الأخرى فتحمل مؤونتنا وما يلزم لنا .

وسرت بخطوات متزنة ، أضرب بعصاى الارض ضربات تنسجم مع خفق قدمى .

وكان الطريق صاعداً متعرجاً ، أرضه صلبة مملوءة بالحجارة ، فكأن هذا الضرب من السير ضرورة طبيعية تقتضيها هذه الأحوال .

وسار رفاق أيضا مثل سيرى ، فكانت تنبعث لوقع العصى المتزن ، المتساوق مع صوت خطانا على الأرض الصخرية ، نغمة جديدة فى أذنى ، أشعرتنى بخطر المهمة التى اعتزمنا الاضطلاع بها . فكأننا فرقة من الجند ، توجهنا لكشف مخبأ لبعض قطاع الطريق نباغتهم فيه .

وظللت منكس الرأس ، مغموراً بسيل من الأفكار المتضاربة . فإذا رفعت عينى ، طالعتنى هذه الأشكال الثلاثة : « مس إيفانس » بقوامها المبسوط الفاتن ، وقبعتها العريضة . « والشيخ عاد » بجسمه الممتلىء ، وكوفيته الحريرية الطويلة المهداب . وذلك « المجاعص » الذى يشبه الجلادين فى مشيته وهيئته . . . وكان ظلهم المتطلق بهم يتبعهم وهو يتخايل

متكسّراً على الصخور المختلفة فى أشكال غريبة .

ولم أسمع « مس إيڤانس » تتكلم . فهل كانت تفكرُ فى مصيرها كما كنتُ أفكر ؟ . . . وبدأنا نشعرُ بوَطْأة الحرّ ، فخلعنا بعضَ الملابس ، وألقيناها على الأكتاف . . .

والتفتَ « الشيخ عاد » إلى « مس إيڤانس » يقول لها :

« أتشعُرينَ بتعب ؟ »

فأجابته فى لهجة تأكيد وأنَفَة :

« كلا . . . كلا . . . »

وكان وجهُها قد بدأ يحتقن ، وتعترضه خيوط رقيقة من العَرَق . . .

ونظرتُ إلى البغلة التى أُعدّت لمن يتعَب ، وجعلتُ أفكر فيمن يكون أولَ راكب . فأزمعتُ فى خَبيئة نفسى ألا أكونَ ذلك الشخص ، مهما يكن من إعيائى .

وتابعنا سيرَنا فى صمت شامل . ولكن النسيم الخفيفَ الذى كان يتمسّح بوجوهنا ، جعل يحمل إلينا أصواتاً من بعيد ، تبَيّنّا فيها أهازيجَ بعضِ الرُّعاة . . . وكان غِناءً ساذَجاً لطيفاً أدخل علىّ بعضَ الطُّمَأْنينة ، وغيّر شيئاً من نفسيّتى الحرِجة . . .

ولم يمض على ذلك وقت طويل ، حتى سمعنا صوت « الشيخ عاد » يعلو فى الجوّ بأغنيّة تعبّر عن تلك الحياة الفطريّة التى يحياها الإنسانُ البُدائىّ فى هذه النواحى المنعزلة . وشجانى غناؤه ، فأنصتُّ إليه كلّ الإنصات ، وشملتنى سكينة نادرة ، وأدرتُ بصرى فيما حولى ، فإذا بالجبال الشاهقة المُخيفة التى كانت توحى الىّ منذُ لحظة بالخطر ، تبتسمُ لى فى جمال وجلال . . . واختفت من مُخيّلتى فرقةُ الجند الذين يريدون مباغتةَ اللصوص فى المخابىء ، وحلّتْ مكانها طائفةٌ من الحُجّاج الصالحين يسيرون نحو المَعْبَدِ العظيم ، حيث يبتغونَ رحمةَ الله ورضوانَه !

وسرنا كذلك وقتاً ، وغناءُ « الشيخ عاد » يصحبُنا ، فيجدّدُ من نشاطنا ، ويُوسعُ فُسْحةَ الأمل أمامنا . وراحت خطواتُنا وهى تُصَعّدُ فى بُطْءٍ وانتظام ، تتّحد بالغناء ، وتؤلف وحدةً فنيةً هى أقربُ إلى الرقص الإيقاعىّ الساذج ...

وعدنا نرتدى ملابسَنا التى خلعناها ، إذ كان الجوُّ قد بدأ يَبْرُد ، والهواء يشتدُّ فى هبوبه . . .

وأخيراً استوقفَنا الشيخُ قائلا :

« فلننظرْ حولَنا يارِفاق ! »

فطُفْنا بأنظارنا ، فإذا نحن على القِمَّـة ، وإذا بالفندق تحتنا نقطةٌ ضائعة بين الصخور . . . وراعَنا ما قطعناه من طريق شاقّ عسير . وقال « الشيخ عاد » :

« هل لكم فى أن تأكلوا ؟ »

فقلت :

« أشعر بجوع قاتل ! »

ووجدنا المكانَ يصلح للراحة ، فيه كثيرٌ من المغاور ، فاخترنا مغارة صغيرةً أجادت الطبيعةُ نحتَها ، وكان الهواءُ يهُبّ بشدة ، فيكاد يُطيرُ أغطيةَ رءوسنا ، وينزع منا ملابسنا ، فهرولنا إلى المغارة ، فاجتمعنا فيها .

وجاءنا « مجاعص » بالطعام ووضعه أمامنـا ، فالتففنا حوله ، وأخذنا نأكل فى شهيَّة نادرة . . . وقالت « مس إيفانس » :

« أخشى أن نأتى على الزاد فى وجبتين أو ثلاثٍ ، إذا استمرت شهيَّتنا على هذه الحال ! »

فابتسمت ، وقلت :

« أمامنـا الأعشاب والجذور . . . لن نموتَ جوعاً على أىّ حال ! . . . »

وقال « الشيخ عاد » :

« إن مؤونتنا تكفى عشرةَ أيام ، فهل تظنّين أن الرّحلة تستوعب أكثرَ من ذلك ؟ »

فأجابت :

« لا أظن ، ولكن هذا يتوقف على مبلغ نجاحنا . »

فقال « بجاعص » وهو يحاول إخضاع لقمة كبيرة حَشَاها فمه :

« وإذا لم نعثُر على القصر فى مدى عَشَرَةِ أيام ؟ »

فأجابت « مس إيڤانس » فى يقين وحزم :

« لن أعودَ قبل أن أجدَ هذا القصر ! »

فتوقّفَ الرجلُ عن المَضْغ ، ونظر إليها مدهوشا . فقلتُ له وأنا أضحك :

« لا بأس ، ياسيد « بجاعص » ، إن طعمَ الأعشاب والجذورِ لذيذ ، فيجب أن تُجَرِّبَه ولو مرةً فى حياتك ! »

وانحنى « بجاعص » على شاربه يَفتِله . . .

وبعد أن انتهينا من الأكل ، أخرج « الشيخ عاد » (الخريطة) من جيبه ، ونشرها أمامه ، ثم أخذ يدرُس معنا الطريق ، ويحدّدُ لنا الموقعَ الذى نحن فيه ، والبقعةَ التى نقصِدُ إليها . .

وبعد أن شربْنا القهوة ، قمنا نستأنفُ السَّير ، وما إن تحرَّكْنا حتى شمِلَتنا الصمت ، واحتوتْنا تلك الموجَةُ الرُّوحيَّة التي يَتَنَبَّحُ بها الصوفيُّ في تأمُّلاته . . . حقًّا لقد كان لهذا القصر سلطانٌ روحيٌّ عجيب على نفوسنا ، سلطانٌ خفيٌّ يجذبنا إليه على الرَّغم مما يُحيط به من مَشَاقٍّ وأخطار .

وبدأنا نَنْحَدِر إلى أسفلَ ، إذْ كان علينا أن نَهْبِط إلى الوادي المُنبسطِ خَلْفَ الجبل ، ثم نبدأ صعوداً جديداً إلى قِمَّةٍ أخرى . . . وهدأ الهواء ، فلم نَكَدْ نشعُر به . وكانت الظِّلالُ الباردة تكسو سفحَ الجبل ، وتحجُب عنا قاعَه . ورأينا أن الهبوطَ أصعبُ من الصعود ، إذْ يكاد المُنحَدَرُ يكون أفقيًّا ، إلى أنه كثيرُ التعاريج والمزالق ، مملوءٌ بالحُصا . فكنا نسير في بطء شديد ، وحذَرٍ بالغ .

وألفيت البغلتين تُنَقِّلانِ حوافرَهما على الصخور في جُهدٍ كبيرٍ ، وأخذتْ كتائبُ الظلام تهجُم علينا في إصرار ، تريد أن تضربَ حولنا نطاقا منيعا لا نستطيع الفَكَاكَ منه ، فاضطُرَّ الشيخ أن يُصْدِر أمرَه بالوقوف . فوقفنا . . .

وسمعتُه يُهَمْهِم :

« لا ندرِكُ قاعَ الوادى إلا بَعد ساعة ، وقد أصبح السير شديدَ الخُطر ، فلننتظر قليلا » .

فقلت :

« وعَلامَ الانتظار ؟ »

فلم يُجِبْنى ، بل كان منهمكا ينظُر فى السماء مدقّقاً . . .

وبعد لحظة قال :

« أبْشِروا ، فقد جاءنا الفَرَج ! »

وما كاد يتم قوله ، حتى بَدَأت الحُلْكَةُ تَنقَشِعُ ، وانبعث ضوء أحمرُ فى جوانب السماء . وجلسنا على الصخور ونحن نُراقب هذا الضوء الجميل يَعْبَثُ بالليل ويداعبه ، مُنْتَشِرا خطاه فى خِفّة . ولَبِثنا كذلك ، وعيوننا متطلعةٌ إلى السماء ، لا نتفوّه بكلمة ، مأخوذينَ بروعة الطبيعة ، منتظرين بُزُوغَ ذلك الساحرِ العظيم !

وكنا لا نسمع فى ذلك الصمت الرازح ، إلا صوتَ الهواء المحتبِسِ فى الوادى ، فكأنه أنينُ شاكٍ أو أسير . . . حتى البَغلتان لقد اشتركتا معنا فى الإصغاء والسكون ، فلم تَصْدُر

منهما حركة أو شَحِيجٌ ، بل وقفتا جامدتين كأنهما تحت تأثير قوة مغْنَطِيسِيَّة .

وأخيراً ظهر القمر يَخْبُرُ قِمَمَ الجبال فى جلال وانتصار ، يسبَح فى هدوء غريب ، ويبتسم حولهُ للأكوان معتَزًّا بجماله وقوته . وإذا بالوادى يَتَفَتَّحُ عن جوانبه ، ويتكشّف عن أسراره . وانتشرت همْهَمة غريبة تكاد تخْطِشُهَا الأُذن . فهل كانت أصواتَ بعض الحشرات قد خرجت من جُحُورها مُرَحِّبة ؟ أم هى أصوات كائناتٍ غيرِ منظورة جاءت تشارِكُنا فى استقبالِ ضَيْفِنا الكبير ؟

لقد شاهدتُ بزوغَ القمر كثيرا ، وأعجبتُ به كثيراً ، ولكننى لم أره قطُّ على هذه الحالة التى رأيتُه عليها فى ذلك الوقت ، ولم أشعر نحوَه بذلك الشعورِ الذى أحسستُه آنئِذٍ ، فخفَضْتُ رأسى وأنا أرتعش !

ونبهنى صوتُ « الشيخ عاد » وهو يقول :

« هيّا . . . فلْنتابعِ المسير . »

ونهضنا ، فاستأنفْنا سيرَنا فى بطء وحَذَر ، كما كنا من قبل ، وما زلنا كذلك حتى بلغْنَا بَطْنَ الوادى . واختار لنا

« الشيخ عاد » مكانا يصلُح للبيت ، وأمر « مجاعص » أن يَنصبَ لنا الخيمَةَ ، وأن يُرِيحَ البغلةَ مما تحملُ من ثِقلِ الأمتعةِ والزّاد .

وتطوّعنا جميعا لمساعدة « مجاعص » ، فأنزلنا الأحمالَ عن الدابة ، وبدأنا نَدُقُّ الأوتادَ للخيمة ، ونهيّئ مخادِعَنا . ورأيت « مجاعص » قد ترك للبغلتين الحبلَ على الغارب ، فانطلقتا تَعْدُوَان ، وهما تقفزان وتَتَشحَجان ، أشدَّ ما تكونان مَرَحا ونشاطاً !

والتفتُّ إلى « مجاعص » وقلتُ له :

« ألا تخشى على البغلتين أن تَهْرُبا أو تَضِلاّ الطريقَ ؟ »

فضحك ضحكةً عريضة ، وقال :

«أنت لاتعرف طبائعَ هذا الحيوان، إنه مَضرِبُ المَثَلِ في الوفاء وقوةِ الغريزة . . . ولو ضَلَلْنَا نحن طريقَنا ، لما وجدنا خيراً منه دليلا يرتاد لنا السبيلَ إلى الإياب . على أنكم ما دمتم معي ، لا خوف عليكم من شيء . أنا ابنُ الجبل ، لقد رُبّيتُ في أحضانه ، وكبرتُ بين وِديانه وقِمَمِه . أعرف صخوره حجَراً حجراً ، وعيونه نَبْعاً نبعاً ! »

ونَدِمت على تَهيدِيَ السبيل لثرثرة « مجاعص » وانهمكتُ في عملي أضرب وَتِدَ الخيمةِ بحجر كبير ، وأنا أدعو « مس إيفانس » في صوت عال أن تحذو حَذْوِي .

وأتمَمْنا تهيئةَ المكانِ في وقت قليل ، وجلسنا أمام الخيمة نتأمَّلُ النارَ التي أشعلناها للتدفئة وإنضاجِ الطعام . وبدأ « الشيخ عاد » يحدثنا حديثه الطريف .

والتفتُّ نحو صديقيَّ . وقلت لهما :

لن أنامَ الليلةَ في الخيمة . إن القمرَ يغريني بأن أفترشَ الأرض تحت ضيائه . يكفيني أن آخذَ معي غطاءً واحداً أتدثَّرُ به ! »

فأقرَّاني على رأيي ، فقمت لآخُذَ الغطاءَ من الخيمة ، فلما صرتُ في داخلها ، سمعت « مس إيفانس » و« الشيخ عاد » يطلبان مني أن آتي لهما بغطائهما أيضاً ، فحملتُ لهما ما أرادا .

ومضيتُ ألفُّ نفسي بغطائي ، وتمددتُ على الأرض ووجهي نحو القمر ؛ أريد أن أشبعَ ناظريَّ بنوره اللألاء . . وجعلت أصغي إلى حديث « الشيخ عاد » . . . وما عَلِمتُ أنه غشيني النعاس !

. . . وفتحتُ عينى ، فطالعتنى أشعةُ الشمس ، وهى تطبَع على جبينِ السكون قبلةَ الصَّباح . فالتفتُّ حولى ، فوقع بصرى على « مس إيڤانس » وهى متمددةٌ على باب الخيمة . فقصدتُ إليها ، وجلستُ بالقُربِ من رأسها أتأمّلُها .

وأحسستُ بغتةً رَجفةً تسرِى فى جسدى ، فهل كانت من نسْمَة باردة هبَّتْ على وجهى ؟ أم كان مرجعها شيئاً آخرَ لا أعرفه ؟

وتحركتْ « مس إيڤانس » ، وبدأتْ أهدابُها تختلج ، ثم فتحتْ عينَيها فى تَلبُّثٍ وتمهل ، فما إن رأتنى حتى قالت فى شىء من الانزعاج :

ماذا ؟

— جئت لأوقظكِ !

فابتسمتْ ، وهى تقولَ :

« أشكر لك . . . »

وقامتْ متباطئة ، وهى تجمع غطاءها ، وتُسَوِى ملابسها ثم قالت :

« شاهدت رؤيا غريبة . . . رأيتُنِى على ظهر باخرة تمخر المحيطَ الشمالىّ ، وإذا بجبل من الثلج قد ظهر لنا ، فدَهَمَنا

موجةُ بَرْدٍ عاصف ، كادت تَصْرِفنا عن الخطر المُلِمّ الذى يتهدّدُنا . . . »

وابتسمتْ ابتسامةً بهيجة !

واستيقظ « الشيخ عاد » على حديثنا ، فقام نَشِيطاً على وجهه بشاشة . . .

وسرْعانَ ما أقبل «مجاعص» وهو يتثاءب ، ويضرِب الهواءَ بذراعَيْه . . .

وقنا نسير .

ولما رأى « الشيخ عاد » إصرارنا على التَّرجُّل ، وعلى ترك البغلةِ لا يركبُها أحد ، أمر « مجاعص » أن يَقْسِمَ الأحمالَ بين البغلتين .

وسرنا نُصعِّدُ فى سَفْح الجبـــل ، وكان الطريق طويلا على وُعُورته ، ولكننا قطعناه منشرحةً صدورُنا نَتَغَنَّى . ولم نشأ أن نجلسَ لنستريح ونطْعمَ ، بل تناولنا غَدَاءَنا ونحن سائرون . فقد امتلكتْنا حماسةٌ غريبة كحماسة الجندِ الإشداء فى حَوْمَة الوَغَى . فلم نعرفْ للتَّعَب معنى ، ولم يشغَل فكرَنا إلا شاغلٌ واحد ، هو الوصولُ إلى القِمَّة فى أقرب وقت مستطاع .

وقد اضطُررْنا أن نأكلَ مرتين قبل أن نصلَ إلى غايتنا .

ومما يستدعى العجبَ أننا لم نسألْ مرةً : فى أى وقت نحن ؟ ولم يُخرِجْ أحدٌ منا ساعةً للنظر فيها . وكانت خطواتُنا وئيدةً ولكنها متزنة . وكثيراً ما دُرنا حولَ أماكنَ نبحث فيها عن خيرِ طريق نسلُكه .

وأخيراً وصلنا ، وإذا بالشمس تميل للغروب ، ووقفنا على القِمَّة ،فألفيناها قمةً عظيمة يَكِلُّ الطَّرْفُ عن إدراك منتهاها. ولبثنا مَليًّا ، نريد أن نتبينَ : فى أىِّ جهةٍ نحن منها ؟ وأن نمتِعَ النظرَ بخلابَةِ الطبيعة من حولنا . ولكن الهواءَ كان شديداً قاسياً يَهُبُّ علينا فى إلحاح ، فكأنه يريد أن يحملَنا على ساعديه الجبارَيْنِ ، ويُلقى بنا على الصخور فى مساربِ الهاوية ، عقاباً لنا على اقتحام مملكته النائية . ورأينا فى عرْضِ القمة بعضَ الفَجَوات ، فقصَدنا إلى إحدها ، وحطَطْنا رحالنا فيها . وبدأ « بجاعص » يُجهِّزُ لنا القهوة ، ويملأ لنا « الغلايين » بالطباق . وجلستُ متربِّعاً ، وأنا مستندٌ بظهرى إلى صخرة خشنة . وبدأت أشربُ القهوة وأدخن « الغليون » مُغْتَمِضَ العينين ، مستمتعاً براحة لم أذُقْ فى حياتى أطيبَ منها .

لقد كان علينا أن نَسيرَ على هذه القمة المستطيلة بصخورها الناتئة ومزالقها المهلكة ، نتطلّع إلى الوادى الآخر — ذلك المكانِ المجهولِ المفعَم بالأسرار — نكتشِفُ فيه موضعَ القصر ، فهو قائم هناك فى تخبئه السحرىّ ، يَسْخَر من الإنسان والزمن معاً .

وأمضينا ليلتَنا فى الفَجْوة ، بعد أن غطيناها بالخيمة ، والتحفنا الأغطية الغليظة ، وأشعلنا النارَ طولَ الليل . وعند الصباح واصلْنا مسيرَنا ، بعد أن أخرج كلٌّ منا منظارَه المكبِّر . وكنا كلما سرنا بضعَ خطوات توقّفْنا لحظة ، وأخذنا نتطلّع إلى الوادى مُدَقِّقينَ فاحصين . وظَلِلْنا نمشى فى حَذَر أىِّ حذر ، لكثرةِ مايعترضنا من عَقَباتِ الطريق فى كل خطوة ، وما نراه من المهاوى التى تحُفّ بنا من كلِّ جانب . ولم يكن الهواءُ يُعفينا من عَبَثه بنا ، ودَفْعه لنا ، وجَذْبه إيّانا هنا وهنا لك . . . وقد تمر علينا سحابةٌ من السحب ، فتلفُّنا فى غمارها الرَّطْبِ تسدّ علينا مذاهبَ الطريق ، وإذا بكلّ شىء يستخفى ، فنقفُ نتبادَلُ النِّكاتِ الفكهةَ ، حتى تنقشعَ السحابة الراحلة . . . وكان يخيَّلُ إلىَّ فى مسيرى أن حذائى قد تمزّق إرْباً إرْباً ، وأن قدمىَّ قد بدأتا تلْبَسانِ الصخرَ وتدْميان .

أمضينا يوماً كلُّه جَهدٌ وإعياء، ولكننا لم نعثُر فيه على شيء. وإذا بالقمة تستطيل أمامنا أكثرَ من ذى قبل، وإذا بنا أمام مجهودٍ جبَّار علينا أن نُتمِّمه فى صبر وجَلد!

وفى اليوم التالى ازداد توعُّرُ الطريق، ووقفنا حيارَى أمام مَعْبَرٍ ليس من سبيلٍ لمواصلةِ السير على غيره... فقالت «مس إيڤانس»:

«أذكر أن الراعىَ الذى اشترك فى بَعْثةِ الكشف الأولى، قد حدَّثنى فى شأن هذا الممرّ!»

فأجابها «الشيخ عاد»:

«أمتأكدة أن حديثَه يَعنى هذا الممرَّ نفسَه؟ إن كثيراً من الممرَّاتِ الخطِرة يملأ هذه المِنطَقَة.»

فَهَمْهَمَتْ «مس إيڤانس»:

«لا أدرى على وجه التحقيق.»

وجعل «الشيخ عاد» ينظر إلى الممرّ بعينه الفاحصة، ثم يُنقِّلُ بصره فى البغلتين. وأطال التفكير، ثم قال:

«لا حيلةَ لنا يا رفاق فى اصطحاب الدابتين!»

فتقدم «مجاعص» واندفع يقول:

« إن هلاكهما محقق ! »

فقال « الشيخ عاد » :

وماذا ترتئي أن نفعل ؟

— أرى أن تتركوهما في عهدتي ، فأتكفل لكم بإعادتهما سالمتين إلى مقرهما .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » و « مس إيثانس » ونظرا إليّ .

وابتسم « الشيخ عاد » لـ « بجاعص » وهو يقول :

« كلا . . . لا نحبّ أن نموت وحدنا . . . تشجّع ، وتعالَ معنا ! »

فاهتز شارب « بجاعص » وتغضّن وجهه ، وقال :

« ماذا ؟ أيخطرُ ببالكم أنني أتردد . . . لولا أنني مشفق على هاتين البغلتين . . . »

فقال « الشيخ عاد » :

« اترك البغلتين وشأنهما . إنهما لا تعدمان مرعى ، وهما في غير حاجة إلى دليل ! »

فقال « بجاعص » وهو يزفرُ :

« هذا ما أقوله وأكرره ، ولكنى ظننتكم على رأى غير رأيى ! »

* * *

واخترنا من أحمال البغلتين ما هو ضرورى لنا ، فوزّعناه علينا نحن الرجال ، وبدأنا نجتاز الممرّ ، يستعين بعضُنا ببعض ، بعد أن شدَدْنا أوساطنا بالحبال . ونجحنا فى عبوره ، واتضحت لنا صعوبةُ مهمتنا فى أقسى مظاهرها . ولكن كلما عَظُمت الصِّعاب وكثُرت ، قوِيَت عزائمُنا ، وتجددَ نشاطنا ، واشتدت رغبتنا فى اكتشاف ذلك الأثرِ العجيب . . .

وأمضينا يومين معاً نجُوبُ القِمّة ، وقد تغيرتْ بنا الحالُ من سير على الصخور وحافاتِ المهاوى ، إلى جُهْدٍ شاقٍّ فى تَسَنُّم الجبال واقتحامِ معابرِها المَخُوفة . . .

والقصر ؟ أين هو ؟ لم نَرَ منه أثراً بعدُ . . . أتكونُ القصةُ خرافة ؟ وتكونُ الخيبةُ نصيبَنا ؟

وبعد يومين آخرين ، تملك قلبى اليأسُ ، فنظرت إلى « مس إيڤانس » نظرةً تحمل ما أكِنُّ من معنى ، دون أن أتكلم . . . فأدركتْ ما يجولُ بخاطرى ، ووقفتْ أمامى

وقفةَ كبرياءَ وتجلد. وقالت وحدقتاها تلمعان فى وَهَجِ الشمس:

« القصرُ موجود، وسنهتدى إليه حتما ! »

ومرَّ بعد ذلك يومان أيضاً، وأوشك الزادُ أن يَنفَدَ، على الرغم من تقتيرنا فيما نأكل منه. واعترى « مجاعص » وجوم غريب، وغشِيَتْه كآبة صمّاء، ولم يَعُدْ يُسمعنا مبالغاته المستفيضة فى وصف شجاعته، والإدلال بخبرته. وتراخى شارباه، وانحنَتْ قامتُه. وكان إذا صادفَتْه فى الطريق عقبةٌ كؤود، طمَحَ ببصره إلى السماء، وصرخَ من أعماقِ قلبه:

« الله يخرب القصر، ويحرق اللى بناه ! »

* * *

وبعد أن جاهدنا جهاداً مضنياً فى ارتقاء إحدى القِمَمِ العالية جلستُ مع القوم بجوار غار صغير أستريح، وجعلتُ أفكر فى هذه المغامرة الغريبة التى أصرَّ على إتمامها، راضياً بأن أهلِك فى هذه البقعة المرهوبة، وكيف يقابلُ الأهلُ والأصدقاء فى مصرَ خبرَ فقدانى، فإذا عرفوا أين متُّ فلا أدرى بماذا يؤوِّلونَ ذلك الجنونَ الذى استحوذَ علىَّ فى البحث عن « قصر مسحور » فى أحضان الجبال !

وحدث أن تناولتُ منظارى ، فوضعته على عينَىّ مداعباً ، وانطلقتُ أضحك من نفسى ومن حالتى . فإذا بـ « مس إيڤانس » تقترب منى ، وتسألنى :

« أوجدتَ شيئاً ؟ »

فقلتُ لها هازلا :

« طبعاً . وجدتُ قصرَكِ المُنيفَ ! »

ووقع بصرى فى تلك اللحظة على مكان فى سَفح الجبل ، لا يختلف عن غيره إلا فى بعض نُجُوات على سطحه . وشعَرتُ برجفة تتمشّى فى جسدى ، وكانت « مس إيڤانس » بلا منظار ، إذ كان قد تحطم على الصخورِ صباح اليوم . فدفعت إليها منظارى وقلت لها :

« انظرى ، انظرى ! »

فأخذَته وجعلت تستشرفُ المكانَ ، ثم سمعتها تصرخ منادية « الشيخَ عاد » ، وأشارت إلى الموقع ، فأخرجَ منظاره ، وبدأ يفحصه بمجامع عينه ، ثم سمعتُه يغمغم :

« أيمكن هذا ؟ أيمكن ؟ »

ثم التفتَ بعضنا إلى بعضٍ صامتين ، والحيرة تلمحُ بها عيوننا !

وأخيراً قالت « مس إيفانس » :

« إن منظره ينطبق على مالدينا من معلومات ، هلموا . . . إن المسافة بيننا وبينه لا تقل عن نصف يوم . . . »

وتوردَ وجهُها ، وأمسكتْ بيدى ، وهزتها فى حماس !

والتفت إلينا « بجاعص » وهو فاغرٌ فاه ، وقال :

« أين (المدعوق) القصر ؟ أين ؟ إنى لا أرى شيئاً . . . »

فناولته المنظار ، وأشرتُ إلى الفجوات ، قائلا له :

« هنالك . . . انظر ! »

وجعل يُجيلُ بصره وقتاً فى الجهة التى عينتها له ، ثم أعاد إلى المنظار فى يأس ، وهو يُدمدِمُ :

« الجنون فنون يا سيدى ! »

وعدنا نسير ، فإذا بنا نقفزُ قفزاً ، ويحُثُّ بعضنا بعضاً على السرعة ، إلا « بجاعص » ، فلقد كان يجرى خلفنا كما يَتْبَعُ الكلبُ صاحبَه ، عليه أن يُطيعَ ، وليس له أن يفهَمَ إلى أين يساق !

. . . وبعد أن قطعنا شوطاً فسيحاً ، وقفنا نستوضح المكانَ فى تشوُّفٍ ، وقلت « لشيخ عاد » :

To: www.al-mostafa.com

« مارأيُكَ ؟ أتَظُنُّ ؟ : . . . »

فأجابنى وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

« أظن أن الطبيعةَ ليست هى وحدَها التى نحَتَتْ هذه الفَجَوات ! »

وسرنا ، فبلغنا أكثر من نصف المسافة ، وكنت أضع منظارى على عينىّ بين فترةٍ وأخرى ، فتبدو هذه الفجواتُ وقد اتخذت أشكالَ عيونٍ مخيفة . وخُيِّلَ إلىّ أنى أسمعها تسائل نفسَها فى غضب : ماسرُّ وجودِنا فى هذا المكان ؟

ولاحظتُ فى أثناء السير أن قدَمىّ كانتا تسوخان فى الأرض شيئاً ما . . . فتوقفتُ الرَّكبَ ، وقلت لـ « مس إيفانس » و « الشيخ عاد » :

« إن طبيعة الأرض قد تغيرت . فقد أصبحتْ أشدَّ ليناً مما مضى . ما رأيُكما ؟ »

وما كدت أتمُّ جملتى ، حتى سمعنا صُراخا حادًّا قد تعالى فى الجوِّ فجأة ، مصحوبا بدَوِىٍّ مكتوم . فالتفتنا خلفنا مذعورين ، فإذا بقِطعَةٍ من الجبل تنهار مثيرةً معها غباراً أزرقَ كالحا ، وانتشر الغبار حولنا فجأة ، فسدَّ دونَنا المَسالكَ . فوقفنا حيثُ كنّا ، وقد

تماسكنا بشدة ، منتظرين بين فينة وأخرى قضاءَ الله فينا . وشعرتُ باختناق ، واندفعنا نسعُلُ ، فكأننا نلفِظ أخرَيات أنفاسِنا . . .

وانقطع دويُّ الانهيار ، ولكنَّ صُراخَ الاستغاثة كان يتعالىَ في الحين بعد الحين ، تتجاوب بصداه الحزين اليائس أكنافُ الجبل . . . وسمعت « الشيخ عاد » يهمس :

« المسكين ! »

وبدأ الغبار ينقشع ، فكأننا خرجنا من الجحيم ، وهبت علينا ريح قوية من الشمال ، فأخذت تطارد فلولَ ذلك الغبار . ورأينا الوادي يعود إلى هيئته الأصيلة تحت أشعة القمر الواهنة .

وانثنى « الشيخ عاد » يُحِدُّ نظرَه فيما تحت أقدامنا من المهاوي . وسمعنا صوتاً حبيساً ، يقول :

« الحقوني . . . في عرضكم أنقذوني ! . . . الجبل كله رازح فوق صدري . . . لا تتركوني ! »

وأخذنا نتشاور : أنترك المسكين يقضي تحت الركام ، أم نخفُّ إليه محاولين إنقاذه ، وفي ذلك تعريضُنا لأشدّ الأخطار ؟

ولم يمض وقت طويل ، حتى رأيت « الشيخ عاد » قد خلع كوفيته وصداره ، وأخذ يتمنطق بالحبل ، وهو يقول :

« سأنزل وحدى ، وعليكما إدلاءُ الحبل ومراقبتى . . . »

ونظرنا إليه فى وَجل ، وقد مضى لم يَنْبِسْ بحرف ، وبدأ يهبط . . .

وانهمكتُ و « مس إيڤانس » فى عملنـــا نراقب الرجل ، ممسكينَ بالحبل ، متيقّظينَ للمفاجآت . وكان « الشيخ عاد » يَنْقُلُ خُطاه فى مهارة وحِذْق ، فعَجِبنا له يُحْسِنُ ذلكَ على الرغم من بداته ، فكأنه (بهلوان) حاذِق ممن يَعْرضون ألاعيبَهم على المسارح .

وعمّ الوادىَ الصمتُ العميق ، فلم نكن نسمعُ إلا خَفْقَ خطوات الشيخ ، وهى تفسَحُ لها طريقاً بين مدارج الصخور . وخُيِّلَ إلىّ انى سمعت صوتاً غريباً يشبه الهمهمة ، فالتفتُّ إلى « مس إيڤانس » أسائلها بنظرى ، فقالتْ خافتةَ الصوت :

« أيكون صفيرَ الرياح على القِمة ، أم. . . ؟ »

وتشبثتْ بى . . .

فأردت أن أرفعَ إلى القِمّة بصرى ، ولكننى لم أجسُر . ووصـــل « الشيخ عاد » الى مكان « مجاعص » وطَفق يرفع الحجارة ، وكانت مهمةً غيرَ شاقّة ، فبـــدا على الفور رأس

« مجاعص » ، ثم ظهر جسمه الفحل . وما إن رأى الشيخ أمامه ، حتى هوى على يديه يقبلهما ويُنَدّيهما بدموعه ، وهو يردد :

« فى عرضك ، يامعلم ، لاتتركني . ولنَعُد من حيث أتينا ! »

فقاطعه الشيخ فى همس :

« صمتاً . . . لاتُعْلِ صوتك ! » .

فألقى « مجاعص » بوجهه فى صدر الشيخ ، كما يحتمى الطفل فى صدر أبيه . وتركه « الشيخ عاد » حتى عاوده بعض الهدوء ، فقال له :

إن أمامك مرتقىً صعباً ، عليك أن تعلُوَه ، ولكن خبرنى : أجريحٌ أنتَ ؟

— جسمى كله يشخب دماً ، وقد تحطمت عظام رأسى !

فتفحصه الشيخ على عجل ، ثم قال :

« من حسن حظك أنك انزلقت على أرض ليّنة . . . أما هذه الجروح فليست بذات بال ! » .

ثم أخرج من صدره زجاجة صغيرة ، وأمر « مجاعص » أن يشربَ ما فيها ، فأذعن للأمر ، وأفرغها دفعةً واحدة فى جوفه ، وقال « الشيخ عاد » :

«والآن هَيَّا . . .

— إلى أين !

— إلى فوق ، حيث ينتظرنا صاحبانا . . .

وأخذا يصعدان فى المرتَقَى العَسِر : الشيخ من أمام ، «وبجاعص» من خلفه، يَتْبَعُه كظِلّه ، وهو قابض على طَرَف الحبل . وانتظرنا طويلا ، حتى وصلا . فما إن دنا «بجاعص» منا ، حتى رأيناه قد تساقط على الأرض فاقدَ الحركة ، فأسرعنا نُسْعِفه . أما «الشيخ عاد» فوقف يَنْهَج ، وهو يمسَحُ عن وجهه العرق .

وبعد هنيهة رأيت الشيخ يتلفَّتُ حوله ، فوقع اختيارُه على شِبْه جُحْر ، فأصدر أمرَه أن نذهبَ إليه . وكان الظلامُ قد غشِيَنا شيئا ، فدخلنا الجُحْرَ كأننا قطيع من الحيوان يأوِى إلى حظيرته . . . واختار كلٌّ منا مكانَه . وجلستْ «مس إيفانس» على مقربة منى ، وهَيْنَم «الشيخ عاد» :

سنقضى ليلتنا هنا . . .

وتألبَتْ علينا الظُّلْمة ، ولفّنا صمت مرهوب . وازدادت الحلكة ، حتى لم يعد يرى أحدُنا مَن حولَه . وطال صمتُنا .

وخيّل إليّ أني وحيد في هذه المغارة المنقطعة ، وتطاير من رأسي كلُّ ما عقلتُه وفهمتُه من البراهين التي تنفي وجودَ السحر والخرافات . وحاصرتني الهواجسُ من كل صوب ، وامتلأ رأسي بمناظرَ صبيانيةٍ مُزعِجة . فجعلت أفكرُ في أجناسِ المخلوقات الغريبة التي تسكن هذه الشِّعابَ ، وما أعدّته لنا من ألوان الفتكِ والإيذاء . . .

وتحركت في مقعدي ، وسعلتُ ، فجاوبني سعالُ الصحابي - وأحسست يدَ « مس إيفانس » تتلمّسُ يدي ، فأخذتها في راحتي ، وأطبقتُ عليها أناملي . . . ثم رأينا المأوى وقد بدأت تنيره أشعةُ القمر ، فتنهدتُ طويلا ، وطفتُ بعيني ، فألفيت « مس إيفانس » منكمشةً بجواري ، تدور برأسها الدقيقِ حولها ، وعيناها لامعتان كما تلمع الماسةُ المصقولة . « والشيخ عاد » ينظر أمامه نظراً تائهاً ، مسترسلا في أحلامه . أما « مجاعص » فقد كوّمَ نفسه وراح في سُبات عميق !

وطال صمتُنا ، ورأيت فَصَّيْ الماس ، وقد بدأ يَدِبُّ إليهما الفتور . ومال الرأسُ الدقيقُ على كتِفي فتوسَّدَه . وغلّفت القمرَ في هذه اللحظةِ سحابة كثيفةٌ أعادتِ الظلمةَ إلى المأوى ...

ورفعتُ يَدَ «مس إيڤانس» إلى فى تباطُؤ وتراخ . . .
ثم أغمضت عينىَّ ، وجعلت أستقبلُ أحلامىَ المؤنِسَةَ فى ذلك الوكرِ الموحِش ، الذى تربض الشياطينُ حوله ، ويَكشرُ فيه الموتُ عن أنيابه !!

وأيقظنا «الشيخ عاد» قُبَيْلَ الفجر ، وهو يقول :

«هيا يا صحابى . . . نريدُ دخولَ القصر قبل عود الظلام . ولا ندرى ماذا ينتظرُنا من مفاجآتِ الطريق !»

٣

وتناولنا طعامَنا المتواضعَ على عَجَل ، وأخذنا نسير . وكنا نمشي ببطء حَذِرين ، نخشى انخسافَ الأرض تحتنا . ولكننا قد نُضْطرُّ — طوعاً لمشورة « الشيخ عاد » — أن نجتاز بعضَ الأمكنة وثباً وعَدْواً . وقد نختار طريقاً يلوح لنا أنه بالغٌ بنا الغاية ، فنقطع فيه شوطاً فسيحاً ، ثم يتضح لنا أنه طريق عسر ، فنرجع على أعقابنا ، ونتوخَّى طريقاً سواه .

وكذلك لم تهدأ لنا حركة ، حتى أوفت الساعة على الثانية بعد الظهر ، فجلسنا لنتناولَ بعضَ اللحم القَديد ، ونتنعمَ بقسط من الراحة . ثم قمنا بعد قليل نتابع السير .

وكنا كلما اقتربنا من القصر ، اتسعت فجواتهُ ، وازدادت ظلاماً . وأشرت إلى فجوة أكثرَ اتساعاً من غيرها . وقلت :

« ألا يكون هذا موضعَ الباب ؟ »

فأجابني « الشيخ عاد » :

« يلوح لي ذلك . . . »

واتجهنا فى سيرنا نحو تلك الفجوة ، وكان علينا أن نصعَدَ إليها فى طريق خُيِّلَ إلىَّ أن أحداً من قبلنا لم يسلكه . والحق أنه لم يكن طريقاً بالمعنى المألوف ، فلقد كنا نسير فى مكان وَعر ذى سطح منحدر مختلفِ النتوء ، حجره أملسُ ، ينزلق عليه الحذاء انزلاقَه على رغوات الصابون ، فكلما خطونا خطوةً مَهَّدنا المكان لمواقع أقدامنا . وكان عملا شاقًّا مضنياً ، بيد أننا جاهدنا فيه جهادَ المستميت . وكنا صامتين لا يُسْمَع لنا إلا خفقُ الأقدام وهى تضرب فى الصخر العنيد ، وإلا زفرات « مجاعص » وأنينه . . . فنال التعب منى كلَّ منال ، حتى قام فى يقينى أننى سأهوى حتما ، وأن مثواىَ لا بدَّ بطنُ الوادى !

وفى النهاية وصلنا ، فإذا نحن أمام فَوْهة كفَوْهة المغاور ، لا تستطيع العينُ اقتحامَ ظلمتها .

واستندنا إلى الجنادل ، مَبْهورِى الأنفاس . ورأيتُ « الشيخ عاد » يتهيأ لدخول الفَوْهة ، فصرختُ :

« سنأتى معك . . . تمهلْ ! »

فالتفت إلىَّ ، وقال :

« كلا . . . انتظروا ، فلن أغيبَ طويلا ! »

وتوارَى شَبَحُهُ فى الظلام ... وأسرعتْ دقاتُ قلبى ...

وعاد الشيخ يقول :

إن المكانَ مسدود ، لا منفذ له .

— إذاً . . .

— هيَّا إلى الفَوْهة الثانية .

واستأنفنا سيرَنا كما كنا على الصخور الناتئة المُلْسِ ، واستبدَّ بى ضيق شديد ، وهبتْ فى نفسى ثورة صامتة ، أتساءلُ : بمالى ولهذه المغامرة الحمقاء ؟

ووقفنا لنستريح ، فاسـندنا ظهورَنا إلى الحجارة المسنونة الأطراف . وأطبقتُ جفنىّ ، وشعَرت بأن المتاعب تطحَن جسمى طحناً . ألا يمكننى أن أختلسَ بضعَ لحظات أستمتع فيها بنوم خاطف ؟ أراهن الكون كله على أننى أستطيعُ أن أنام واقفاً ، مُسْنِداً رأسى إلى رماح الصخور ، وتحت قدمى هذه الهوةُ السحيقة ! . . . ومن يمنعنى من ذلك ؟ فلأفعَلْ .

وسَرْعان ما سمعتُ صوتَ « الشيخ عاد » يقول :

« هلمُّوا ! »

ففتحتُ عينيّ حانقاً ، واستسلمت للمقادير . وواصلنا السير ، وبعد لأْيٍ بلغنا الفَوْهة ، فدخلنا فيها ، وتقدَّمَنَا الشيخ ، فرأيته قد أخرج شمعةً من جيبه فأشعلها ، ومشى محاذِراً وقد حنَى هامتَه ، وانكمش متلصِّصاً ، كأنه مقْدِم على جريمة . فشينا على أثره منكمشين كذلك . وأخرجتُ مسدسي ، وقد أرهفتُ أذني لأضعف حركة . واتضح لي أننا نسير في دهليز رَطْب ، منقورٍ في قلب الجبل . ولم يَفُهْ أحدنا بكلمة . وبدأ الدهليز يلتوي بعد أن كان مستقيما ، وطال سيرُنا والطريقُ ما يزال في التوائه وإظلامه . ثم رأيناه يتسع شيئاً ويستنير . وأخيراً ظهر أمامنا منفَذ يغمره وَضَح النهار ، وغمغمتُ قائلا :

« لقد وصلنا إلى داخل القصر . فلنستعدّ ! »

وسرنا حتى انتهينا إلى المنفَذ ، فإذا بنا نطِلُّ على الوادي الذي تركناه خلفنا ، وإذا الفَوْهةُ التي ظنَنَّاها غايةَ المرحلة ، هي بعينها الفوهة التي دخلنا منها !

والتفت بعضنا إلى بعض متسائلين . . . ورأينا « مجاعص » يجلس على الأرض ، وقد انفجر في ضحكةٍ طويلة ، ثم قال :

« حقا لقد وصلنا ! »

فأجابه « الشيخ عاد » فى حزم وعزم :

« سنصل أيها الغبيّ ، وسترى . . . »

وجلسنا على رأس المَدْخَل فترة ، ثم قمنا نستكشف الفَوْهَة الثالثة ، فوجدناها بلا مَنفَذ ، ولكنها كانت فسيحةً كأنها قاعةٌ لا يُغوِرُها إلا الأثاث . فقال « الشيخ عاد » وقد تجلى اليأسُ فى نظرته :

« هنا سنمضِى الليلة ! »

وتجهَّمَ وجه « مس إيڤانس » ولم تنطِقْ بكلمة ، وأخذنا نَعِدُّ المخادِعَ . وبعد قليل أطفأ « الشيخ عاد » الشمعة .

وبينما أنا قد غلبنى النوم ، إذْ شَعَرْتُ بيدٍ تهُزُّنى بلُطف ، وإذْ بى أمام « الشيخ عاد » ، فبادرتُه بقولى :

ماذا هناك ؟ أخَطَرٌ أحْدَقَ بنا ؟

— كلا . ولكن يلوح لى أنى عرفت الباب . .

— الباب ؟

— تعالَ معى !

ونفضتُ بقايا النوم عن عَيْنَىَّ ، وقمتُ معه ، فقادنى إلى الركن الأيمن من الحجرة ، وأشار إلى صخرة من الحائط ، وقال :

« ادفعْها بيدِكَ قليلا . . »

فدفعتها ، فإذا هى تلين بعضَ اللّين تحتَ يدى . فابتسم « الشيخ عاد » وقال :

لقد قضيتُ الوقتَ منذ أخذكم النوم وأنا أفحص عن جدار المغارة ، حتى عثرتُ على هذه الصخرة ، فتولانى الشكُّ فى أمرها لبروزها عن مستوى الجدار ، فأخذتُ أحفر حولها ، حتى تبين لى أنها مستقلة ، ليستْ جزءاً من الحائط !

— والآن ماذا ترى ؟

— نُتمُّ العمل معاً ، حتى يتبينَ لنا صدقُ ظننا . . .

وناولنى قدُوماً وإزميلا ، وأخذ مثلهما ، وجعلنا نعمل ، فتعمقنا فى الحفر حول الصخرة ، مجتهدَين فى إخراجها من مكانها . وأيقظنا « مجاعص » ليساعدَنا فى عملنا ، ولكنه لم يفعل شيئاً يستحقُّ الذكر ، بل لقد كان تثاؤبه وتمطيه المستمرُّ يعطلنا ، حتى خشينا أن تصلَ إلينا عدْواه !

ولما حَمِىَ وطيسُ الدقّ ، استيقظتْ « مس إيفانس » فأقبلتْ إلينا ، وفهمتْ كلَّ شىء دون أن تسألنا ، فلمع وجهُها بالبِشر والارتياح !

وبعد جُهد جَهيد استطعنا انتزاعَ الصخرة ، فظهرت كوّةٌ

بخلفها سرداب ، فنظر « الشيخ عاد » منها ، ونور الشمعة الشحيح يضيء له بعضَ المكان ، ثم قال :

« إنه الطريقُ الموصِّلُ إلى القصر ، ليس فى ذلك أىُّ ريب . هيَّا يا صحابى ! »

وهمهم « مجاعص » يقول :

ولماذا لا ننتظر إلى الصباح ؟

— وهل تظن أن أشعةَ الشمس ستنفُذ إلى هذا السرداب ، فتنير لكَ الطريق ؟ !

— ولـكن . . .

— ولـكنْ خيرُ البر عاجله . . . هيا !

وانحنى « الشيخ عاد » فدخل ، وتَبِعَتْه « مس إيڤانس » ثم دخلتُ وراءهما وأنا أجرُّ « مجاعص » من يده . . . وكان أولَ ما طالعَنا من هذا السرداب ، رَدْهة صغيرة لم يستطع نور الشمعة أن يُرِيَنا جوانبها . وتقدم « الشيخ عاد » ونحن خلفه يمسك بعضنا بعضاً ، لا نتحركُ إلا معاً . . .

وسرنا على هذه الحال خطواتٍ ، وبغتةً شعرْنا باختلال توازُننا ، فتساقطنا ، بعضُنا على بعض ، وإذا الطريق يغدو

زَلقاً شديدالتَّحَدُّر. وأحسَسنا أنفسنا نَهبِط بسرعة شديدة، فى ظلام دامس، إلى حيث لا نعلم!.. ولم يفه أحدُنا بلَفْظ، وعاجلتنا الخفافيشُ المذعورة تطير من حولنا، وتضرب بأجنحتها وجوهَنا، فتعالى صياحُنا... وما لبثنا أن وجدْنا أنفسَنا قد تراميْنا فى شبَكةٍ أو نحوها، مرتفعةٍ عن الأرض، فى بقعةٍ مكشوفة!

تمّ ذلك كله فى لَحظات، كأنها ومَضَات البرق، فلم نَعِ من أمرِنا شيئاً. ولا ندرى كيف عجزنا عن تَوَقى هذه السقطةِ، وتلافى الانزلاق فى ذلك المنحدَر.

وكان نور السَّحَر يتقدم الفجر، ويؤذِن الوجود بانحسار الليل، فتبينَ لنا أننا فى شبه حديقة. وكان كلما انجَلى الصباح تراءتْ لنا أغصانُ الشجر، وحمل إلينا النسيمُ البليلُ عِطْرَ الرياحين..

وتفحَّصَ «الشيخ عاد» حبال الشبكة، وقال:

«فلنقطعْها بالسكين!»

وبحثنا عن سكين معنا، فلم نوفقْ إلى شىء يصلح لهذا العمل.

فقال «بجاعص» وهو يجتهد فى فَسْح محلٍّ له بيننا:

«إننى أستطيع أن أقرِضها بأسنانى!»

فقالت « مس إيڤانس » :

« إذا تم ذلك أمكننا أن نقفِزَ منها إلى الأرضَ ، فى غير مَشَقة . . »

وانطلق « مجاعص » يَقرِض الحبال ، وما كاد يبدأ عمله ، حتى سمعتُ « مس إيڤانس » تَهمِس :

« انظرا إلى هذه الخيلة . . . انظرا . . . ألا تَرَيان فيها شيئاً ؟ »

فجعلت أنظر ، أنا و « الشيخ عاد » ، وهَيْنَمْتُ :

« أرى عينين براقتَين ! »

وسمعنا حفيفاً خفيفاً بين الأغصان ، فقلت :

قد يكونُ حيواناً وحشياً .. أخشى أن يَهْجُمَ علينا ، ونحن فى مَحبِسنا هذا ، فلا نستطيع منه الفَكاكَ ! »

ووجدتُنى أخرِج الغدّارة وأطلِق عليه من فورى رصاصة ، ولكن مَرقَ فى الوقتِ عينه نصل لامعٌ من ناحية الشىء الذى توهمته وحشاً ، فكاد النَّصْل يَمَسُّ كَتِفَ « مس إيڤانس » ثم ارتطم فى الصخرِ خلفَنا ، وعاد فاستقرّ فى حجْرِ « الشيخ عاد » . . . وتداولناه فى عجَلةٍ ننظرُه ، فإذا هو

خِنْجَرٌ ماض ذو حدين ، له مَقْبِض من أغصان الشجر ، فتبادلنا النظرات مصعوقين . . .

وتوارت العينان وهدأت الحركة بين أغصان الخيلة . فقلت:

« ماهذه المُعَمَّيَاتُ ؟ »

فأجابنى الشيخ :

« أخشى أن تكون قد أصبتَ آدميًا ! »

وغمرنا صمتٌ مرهوب !

وأمسك « الشيخ عاد » بالخنجر يقطع به حبال الشبكة . فَفَسَحَ لنا فيها طريقَ خَلاَص . . .

٤

لم تمض فترة وجيزة ، حتى كنا نحن الأربعة على الأرض نسير بخطا حَذِرَة نحوَ الخيلة المقصودة . وكانت طلائعُ الشمس قد بدأت تبسُط علينا أشعَّتها ، فبدا لنا المكانُ ، وكأنه من أدغال الوحوش . . . فدخلنا ونحن نَشُقُّ لنا طريقاً بين الأشجار الملتفَّة ، والأغصان المهدَّلة ، تدوس الأعوادَ اليابسة ، والأوراق الذابلة ، فيُسْمَعُ لها صوتٌ مفزِّع فى هذا المكان الصامت !

وأخيراً وجدنا أنفسَنا أمامَ جسمٍ مطروح ، فتقدمنا نتَبَيَّنُه ، فإذا هو يقومُ برأسه ، ويرسلُ لنا من مقلتَيْه وميضاً ناريا ، وسمعناه يردِّد :

« لاتمَسُّونى . . لاتقرَبُونى . . . إنى أمقُتكم ! »

ووقعت عينُه فى هذه اللحظة على « مس إيڤانس » فألفينا حَدَقَتَيْه قد اتسعتا اتساعاً عجيباً ، ونظرَة قد تركَّزَ فيها . ثم اختلَجَ جسمُه بأسره ، وعلت وجهَه ابتسامةٌ ، وقال :

« عجيب ! . . . عجيب ! . . . أممكن هذا؟ »

ثم هَوَى برأسه على الأعشاب ، وهو يحدّق فى « مس إيڤانس » ويُحَمْحِم :

« صفاء ! . . . صفاء ! . . . »

وانكب « الشيخ عاد » عليه ، يتعرّف جُرْحَه ، ثم اتجه إلينا ، وقال :

« أعْطُونى خِرَقاً وماء . . . »

فناولناه مامعنا من خِرَق ، ووجدتُ وعاءً فَخّاريا بالقرب من الرجل الجريح ، فناولت « مجاعص » إياه ، وقلتُ له :

« دونَكَ الحديقة ، فابحثْ لنا عن ماء فيها . . . »

فغمغم يقول :

أفى هذا المكان المهجور ماء ؟

— اذهبْ ياغبىّ ، أتظن أن هذا الآدمىّ يستطيع أن يعيشَ هو وما حوله من نباتٍ ، دون ماء ؟

فتلكأ قليلا ، ثم أخذ الوعاءَ ومضى . . .

وتقدمتْ « مس إيڤانس » من الجريح ، وقالت تخاطبُ « الشيخَ عاد » فى رِفق :

ماذا ترى فى جُرْحِه ؟

— يلوح لى أن حالتَه لا تخلو من خطَر ، إن الرَّصاصةَ مرت بجانب الثَّدْى الأيمن . .

فركعتْ « مس إيفانس » بجوار الغريب ساهمةً تفكّر ، ثم تساءلتْ :

« لماذا يدعُونى : صفاء ؟ »

فقلتُ لها على الفور :

« الرجل إما مخبول ، وإما محموم ! »

وعاد « بجاعص » بالوعاء ، متهللَ الوجه ، يقول :

« عَثَرْتُ على نَبْعٍ ماؤه زُلال . . . سبحانَ مُبْدِعِ الأكوان ! »

وشرع « الشيخ عاد » يُضَمِّدُ الجرْحَ ، ونحن ملتفّون حوله . . .

أما الغريب فهو رجل عَبْلُ الجسم ، مبسوطُ القامة ، ذو ملامحَ متناسقة ، تهدَّلَ شعرُه على مَنكِبَيْه ، واختلط فى لحيته الكثَّة البياضُ بالسواد . وهو مرتدٍ ثوباً ساذَجاً قصيراً مجدولا من ألياف الشجر . يَتَمنْطق بحزام ، ورأسه عارٍ ، وقدماه حافيتان .

وظلت « مس إيفانس » تحملُ الإناءَ لـ « الشيخ عاد » تساعده فى عمله ، ورأيتها تُطيل فى الوعاءِ النظر . . . ولما استنفد الشيخُ

ما فيه من ماء ، أدنَتْه « مس إيڤانس » من عينيها تُقَلِّبه ، وتستوضحُه بدقة . ثم ناوَلتْني إياه ، وهي تقول :

« اقرَأ ماهو مكتوبٌ عليه . . . »

فقرأتُ كلمة « صفاءَ » منقوشةً فى حافَتِه من الداخل فى وضوح ، فغمغمت :

« لا أدرى ما الذى يَعْنيه بهذا . . . »

وقمتُ إلى النَّبْع ، فوجدته غيرَ بعيد من مكاننا ، موضعُه بين الصخور ، يَفيضُ ماؤه عليها ، ثم يعود فيجتمعُ فى شبه حَوْض ، ومن ثمَّ ينحدر فى قناةٍ تجوسُ خلالَ الخميلة . . . وهنالك على الصخر الأملس الذى ينبثقُ الماءُ من قلبه ، ويتسايلُ على صفحته ، قرأتُ بخطٍ مُنَمَّقٍ كلمةَ « صفاء » !

فقلت هامساً :

« وهنا أيضاً ! »

وفيما أنا عائدٌ ضَللتُ طريق ، فرأيتُني بالقربِ من الشبكة التى كانتَ تحتَويِنا . والتقى بصرى بقطعةٍ ملساءَ فى جانب الجبل ، منقوشٍ عليها بخطٍ كبير ذلك الاسمُ السالف ، وقد رسم تحته قلبٌ بجانبه زهرة . . . فنالتنى حيرةٌ لا تخلو من

ضيق . وعدت إلى « الشيخ عاد » بالإناء ، وقد اندلقَ نصفُ ما فيه على الأرض .

ولما فرغ « الشيخ عاد » من تضميدِ جراحِ الغريب ، اخترنا له مَرْقداً طيباً فى الخيلة ، ثم مَدَدْناه عليه ، ووسَّدْناه حُزْمةً من الهشيم .

وأردنا أن ننصرفَ عنه . فقالت « مس إيفانس » :

« أتركه وحيداً ؟ »

فقال « الشيخ عاد » :

ألم يكنْ وحيداً قبل أن نحضرَ ؟

— ولكنه جريح !

— لاخوفَ عليه . إنه لا يستيقظُ قبل ساعة أو أكثر . . .

وأخذنا سَمْتَنَا إلى النبع ، فغَسلنا وجوهَنا ، ورحنا نَنْهَلُ منه حتى ارتوَينا . وقرأتْ « مس إيفانس » كلمةَ « صفاء » المنقوشة فى صخرةِ النَّبْع ، ولكنها لم تفتَحْ لى حديثاً فى شأنها . وجلسنا حولَ الماء متباعدينَ فى شبه حَلقة ، وقد أسند بعضُنا ظهره إلى الصخور ، وبعضٌ آخر إلى ساقِ الشجر .

وامتلكتنا غاشيةٌ من صمت ، وغلب النعاسُ « الشيخَ عاد » فأطبق جفنيه . أما « مجاعص » فكان يغطّ فى نومه منذ جلس ، ورأيتُ رأسى يترنّح ، وما هى إلا أن رحت فى عالمِ الأحلام !

* * *

وفتحت عينىّ ، فألفيتُ « الشيخ عاد » و « مجاعص » على حالها . أما « مس إيڤانس » فلم تكن موجودة ، فقمت مدفوعاً بعامل خفىّ ، وقصدتُ على الفور خيلةَ الجريح ، وكنتُ أسيرُ متلصّصاً . فما إن اقتربتُ من المكان حتى سمعتُ صوتا ، فوقفت مختبئاً أنصت . . . وطفقت ببصرى بين الأغصان ، فرأيت « مس إيڤانس » راكعةً بجوار الجريح ، وهو آخذٌ يدها يحملقُ فيها ، ويقول :

« شكراً لكِ على زيارتكِ لى بعد هذه الغيبة الطويلة ! »

فقالت :

أأنتَ الآنَ أحسنُ حالا ؟

— إننى لا أشعرُ بمكروه ، ما دُمْتِ معى !

— ما دمتُ معكَ ؟

— إن الرصاصةَ التي قَذَفْتِنِي بها كانتْ جزاءً عدْلا ؟

— ولكنني لم . . .

فقاطعها قائلا :

« لقد جئتِ لتَقْتَصِّي مني . . . فالحمدُ لله ! »

ورفع يدَها إلى فمه . وقبَّلَها قبلةً طويلةً حرَّى ، وكانت شفتاه ترتعشان ، وعيناه تَدِيَتَيْن بالدموع . . .

ثم رأيتُه قد غاب ثانياً عن الوَعْى ، فخرجتُ من مخبئى ، ودنوت من « مس إيفانس » فقالت :

إنه يحدِّثُني حديثاً يبعثُ على الدهشة . . . يزعم أني جئته لأقتصَّ منه !

— أما قلتُ لكِ إنه مخبولٌ أو محموم ؟

ولَحِقَ بنا « الشيخ عاد » فقلتُ له :

« لقد استيقظ الجريح ، ولفَظَ بضعَ كلماتٍ محمومة ، ثم فَقَدَ وَعْيَه كما كان من قبل » .

فجسَّ « الشيخ عاد » نبضه ، ثم قال :

« لا خوفَ عليه ، اترُكُوهُ ليرتاحَ . . . هيّا بنا لنرتادَ الحديقة ، ونستوضحَ شيئاً من القصر . »

* * *

وخرجنا من الخيلة ، فجُبْنا أنحاءَ الحديقة ، فألفيناها فسيحةَ الأرجاء ، تغمُرُها أشجارُ الفاكهة ، محمَّلةً بالطيِّب الجَنِيّ من مختلف الثمار فأكلنا ما لذَّ لنا وطاب حتّى بلغنا الشبع . ثم مَرَرنا بأقسام من الحديقة مزروعةٍ أصنافاً شتى من الخضر والبقول .

وانثنينا بعد ذلك في بعض المدارج ، فعثرنا على كُوخ ، فدخلناه ، فاذا هو مسكنٌ غاية في السذاجة ، به مرقد مُسوًّى من الغصون ، وغطاء مجدولٌ من لِحاء الشجر ، وأسفاطٌ يحوى بعضها أليافاً أو ما يُشبه الألياف ، وفى بعضها الآخر قليلٌ من البقول والثمار الجافّة . . . هذا إلى عددٍ ضئيلٍ من الأوانى الفخّارية ، مبعثرٍ فى شتى الجوانب ، بعضُه فوقَ بعض .

وسمعتُ « الشيخ عاد » يقول :

« لماذا اختارَ هذا الكوخَ لنومه ؟ أليس فى القصر حُجُرات ؟ »

وخرجنا نمرُّ بجوار الشبكة . . . ووقفتْ « مس إيڤانس » أمام الصفحةِ المصقولةِ العريضةِ المكتوبِ فيها اسمُ « صفاء » تحدّقُ طويلاً فى هذا الاسم وفيما تحته من رَسم القلب والزهرة .

ثم تابعت سيرها معنا. وكانت أقلتنا كلاماً، وأكثرنا تفكيراً. ولكنها كانت أشدنا اهتماما بما يستتبين لنا من معالم المكان.

وجزنا بفتحتين تشبهان المغاور، فولجناهما، فلم نجد بهما شيئاً يستر عي الاهتمام. ومررنا بالثالثة، فإذا هي ذات سقف عالٍ، وفي ركن من أركانها مدفأة منقورة في الصخر بها بقية من رماد، وعلى مقربة منها كتل من الخشب المعد للحريق...

فقال «الشيخ عاد»:

«أراهن على أن هذه المغارة مستتر له، فهو يقضي فيها الليالي الزمهرير!»

فاجابت «مس إيفانس»:

«يا له من شخص غريب الأطوار!»

وقلت:

«أخشى أن نكون قد كشفنا مأوى رجل من قطاع الطريق، فر هاربا من يد العدالة!»

فأجابني «مس إيفانس»، وهي تنظر إلي في عتاب:

«لا تحكم عليه ياصديق قبل أن تعرف حقيقته!»

وبدأ الظلام يتكشى المكان، فقد آذنت الشمس بالمغيب،

واستترت خلف القمم العالية . . .

وجعلنا نفكر : أين نبيت ؟ فقال « الشيخ عاد » :

« تستطيع مس إيفانس أن تنام فى الكوخ ، فهو أليق مكان بها . . . أما أنت ومجاعص فتبيتان هنا . . . »

فقلت :

وأنت ؟

— إننى أفضل العراء ، وسأختار مكانى بين الخائل .

وقالت « مس إيفانس » :

ومضيفنا ؟ أنسيت أنه جريح ؟ سأترك له الكوخ ، وسأبحث لى عن مكان آخر . . . »

فقال « الشيخ عاد » :

« كلا ، ياسيدتى ، لن يضيره أن يمكث حيث هو . . . إنه ابن الغابة ، وحليف الجبل ، وقد يؤذى الانتقال جراحه التى لم تندمل بعد . . . »

وانتصحنا بنصيحة « الشيخ عاد » فانطلقنا نهيئ أمكنتنا للنوم . وبعد أن بذلت جهد الإمكان فى معاونة « مس إيفانس » على إعداد فراشها ، وتوفير أسباب الراحة لها ، ذهبت

بـ « مجاعص » إلى الخائل تجمعُ الهشيمَ والأعشاب . ولما انتهيتُ من تهيئةِ المرْقَد ، نظرت إلى « مجاعص » وقلتُ :

« مارأيُكَ فى هذا السرير الفاخر ؟ »

فأجابَ ، وهو يَتَمَطّى ويتثاءبُ فى تَصَايُح :

أحلِفُ لك بعُمْرِى إن كلّ إنسانٍ يَحْسُدُنا عليه ، حتى السلطان ! »

واستلقى عليه ، وراح يتقلّب ، وهو مازال يتثاءَبُ ويتمطّى . ثم هدأتْ حركتُه ، فناديته ، فلم يُجِبْنى . وبعد قليلٍ علا شخيرُه ، فتركتهُ ، وخرجتُ أمامَ الساحة ، فوجدتُ « مس إيڤانس » و « الشيخ عاد » يَنْقُلانِ إلى الجريح بعضَ الهشيم ، فذهبتُ معهما ، واستطعنا أن نُعِدَّ له فى مكانه مَرْقداً ليّناً ، مَدَدْنَاهُ عليه فى رِفْقٍ واحتراس ، وغطّيْناه بفروٍ قديم صادفناه فى كُوخه ، ولم نلبثْ أن تركناهُ نائماً !

* * *

وفى الغَداةِ استيقظتُ نشيطاً ، فقد قطعتُ ليلتى مسترسلا فى نومٍ شديد . . . وقصدتُ من فورى حديقةَ الفاكهة ، وملأتُ سَلتى بأطيب الثّمار . وذهبتُ إلى الكوخ ، حيث ترقد

« مس إيفانس » ، وعلَّقتُ السَّلَّةَ بالباب ، وأخذتُ سمتي إلى النَّبْع . وما كدتُ أقتربُ منه حتى رأيتُ سِتْرًا منسوجاً من الألياف يتدلّى من شجرة ، يتراءى خلفَه إنسان شِبْهُ عارٍ يغتسِل ، وعلى قِيدِ خطُواتٍ من السِّترِ قميص الإنكليزية الحسناء ! . . . فوقفت لحظةً أبتسمُ في جذَل ، وأنا أترددُ بين إقدامٍ وإحجام . . . ثم عدتُ أدراجي إلى الكوخ ، وشَغَلْتُ نفسي وقتاً بإعداد الفاكهةِ لها .

وبعد قليلٍ أقبلتْ ووجهُها ما برِحَ يقطُرُ منه الماء ، وشعرُها الساجي مهدَّلٌ على أكتافِها . فما إن لمحَتْني حتى صاحتْ في شيء من التَّعجُّب :

« أأنتَ هنا ؟ »

فقلتُ ، وقد استحْيَيتُ من لهجتِها :

أساءَكِ قدُومي ؟

— كلا . . . كلا . . . غير أن الوقتَ مبكِّر ، ولمْ أكن أظنُّ أنه قد استيقظَ أحدٌ بعد .

— كيف أمضيتِ ليلتَكِ ؟

— أرِقةً قَلِقةً ، تهفو بيَ الهواجس !

— لَشَدَّ مَا يسوءُني أن أعرفَ ذلك !

ووقفتُ قليلاً صامتاً ، أراقبها وهي تُجَفِّفُ وَجْهَهَا . ثم أدنيتُ منها بعضَ الفاكهة ، وقلتُ :

لقد جئتُ لك بالفَطُور .

— شكراً يا صديق . . . سأختارُ له عُنْقوداً من العنب . إنه لم يَطْعَمْ غيرَ الماء منذ أمسِ !

— الجريح ؟

— لقد ذهبتُ إليه حينَ صحوتُ ، فإذا به ما زال نائماً فتركتُه لم أزعجه .

— أنتِ طيبةُ القلبِ يا مس إيفانس !

قلتُ ذلك في لهجةٍ تُفصِحُ عن شيءٍ من الاستنكارِ والتعجُّب . فنظرتْ إليَّ نظرةً فاحصة ، قابلْتُها بابتسامةٍ سائحة . . . وخرجْتُ !

° ° °

التقينا بعد ذلك جميعاً على بابِ المغارة . . . كنت جالساً أفكر ، وعن كَثَبٍ مني « مس إيفانس » تُغنّي في وَهَجِ الشمس بِتَصْفيفِ شَعَرِها وتجفيفهِ . و « مجاعص » منهمكٌ في قضم

كوزٍ من الذُّرَة نجحَ فى شيِّهِ . أما « الشيخ عاد » فكان فى داخلِ المغارة ، ولا أدرى : ماذا كان يعملُ هناك ؟

وخرج بعد فترةٍ ، متهللَ الوجه ، يقول :

ألم ترَ البابَ المؤدّىَ إلى السِّرْداب ؟

— لم أرَ شيئاً !

— إنه على قيدِ خطوتين من فراشك . . . تعالَ انظر .

ونهضتُ معه ، فوجدت باباً من الحجَر ، لا يبعُدُ كثيراً من مكان فراشى ، فقلت :

« عجيب ! كأنما صُنِعَ ليلاً فى أثناءِ نومى ! »

فضحك « الشيخ عاد » وقال :

لقد كشفتُ خلفه سِرْداباً .

— وإلى أين يُفضِى هذا السرداب ؟

— أكبرُ ظنى أنه مُفضٍ إلى داخلِ القصر !

وجاءت « مس إيثانس » وكانت قد انتهتْ من تصفيفِ شَعَرِها ، فَعَقَصَتْهُ بمهارة خلفَ رأسها . وتساءلتْ :

« ما الخبر ؟ »

فقصَّ عليها الشيخ كشفه الجديد ، فقالت له :

وماذا تَرَى ؟

— ندخلُ في السرداب على الفوْر لإتمام الكشف !

ودخلنا . . . فإذا بنا في ممرٍّ رَطب ، بدأ ضيِّقاً ، ثم انبسط ، حتى أصبح ممراً فسيحاً تغشاه ظلمةٌ غيرُ حالكة .

ولم نسر فيه طويلا ، حتى رأينا أمامنا دَرَجاً حلزونيًّا كأنه دَرَجُ مئذنة ، فجعلنا نَصْعَدُ فيه . وكان « الشيخ عاد » يتوقفُ بين فينةٍ وأخرى ليتفحَّصَ الجدارَ أو الدَّرج .

وأخيراً هَمْهَمَ قائلا :

« إنه منحوت في صميم الجبل . . . »

فقلتُ :

ولكن يلوح لى أنه بلا مُنتهى !

— إذاً سنرقى به إلى السموات العُلا !

وما فتئنا نَصْعَد ، إلى أن بلغنا غايةَ الدَّرَج ، وقد أخذ منا الجهدُ كلَّ مأخذ . وألفينا أنفسنا أمامَ ثُغرةٍ في حجم الأبواب المألوفة ينفُذُ منها نورُ النهار . ورأيت « مس إيڤانس » تتهالكُ على الجدار ، ممتقعةَ الوجه ، فأقبلتُ عليها ، وأسندتها إلى صدرى ، وأخذت أروِّحُ وجهَها بمنديلى . وانتظرنا حتى

أفاقَتْ من غشيَتها . ولما وَجدَتْ رأسَها على صدرى ، بدا عليها الدهش ، وقالت وهى تستعيد وَقفَتَها :

« إنى آسفة ! . . . آسفة جداً ! . . . هيا . . فلنتابع سيرنا ! »

وَوَلَجْنا الثغرة فإذا نحن فى رَدْهَةٍ فسيحة يغمُرُها النور ، وينطلِقُ فيها الهواء ، يأتيان إليها من نافذتَيْن مستطيلتَيْن ؛ ورأينا صُفَفاً من الحجر ، فى كلّ جانب من جوانب الرّدْهَة صُفّةٌ ممتدّة ، وفى وَسْطِها خِوَانٌ كبير من الحجَر أيضاً .

فالتفتُّ إلى رفيقىّ ، وقلت :

« كأننا فى قاعةِ مَحْكَمَةٍ من محاكم القرونِ الخالية ! »

فأجاب « الشيخ عاد » :

« قد يكون صاحبُ القصر أعدّها لِتَصْلُحَ لذلك . ألم يكنْ أميرا على عشائره ؟ »

وانتحتْ « مس إيڤانس » جانباً ، تؤدّى بعضَ الحركات الرياضيةِ الخاصةِ بالتّنَفّس ، ثم اتجهتْ نحوَ الصُّفّة ، حيثُ تقوم خلفَها النافذتان ، فأسرعتُ أنظّفُها ، وأنفى عنها طبقاتِ الغبار التى كانت تَكسُوها . فشكرتْ لى ، وجلستْ ، ثم ألقتْ بظهرِها إلى الحائط ، فقلتُ هامساً :

« أما زلتِ مُنْعَبة ؟ »

فأجابتنى ، وقد أسبلتْ جفنَيْها :

« أشعُرُ بتعب ، ولكنه ليس بالكثير . . . »

وكان « الشيخ عاد » يجوبُ الحجرةَ ويتفحّصُها ، فلم أُلْقِ بالاً إليه ، ولم أغادرْ مكانى أمام « مس إيثانس » . . . وقفتُ أطيلُ النظر فى وجهها الهادئ ، وقد غشِيَتْه غَفْوَةٌ خفيفة ، فإذا به قد عراه هُزَالٌ وشُحوبٌ لم ألاحظْه من قبلُ . ولكن ذلك لم يَنَلْ من وسامتِه ، بل لعله قد زادَه إغراءً وفِتْنَة . فإن هذه الصُّفْرَةَ القليلةَ التى انتشرَتْ على صفحتِه ، فاختلطتْ بحُمْرَتِه الأصيلة ، أكسبته لوناً شرقيًّا رائعاً ، زانَتْه رُوحانيَةٌ ساحرة ، تنطق بها كلُّ قَسِمَةٍ من قَسَماته . روحانيةٌ أضاءت خلف أجفانِها المُسْبَلة ، وشاعتْ تحتَ بَشرَة وجهها النَّضر ، فأحالتْ تلك الطَّلْعَةَ من وجهٍ إنسانىٍّ مركّبٍ من لحم ودم وعظم ، إلى طيفٍ مؤلَّفٍ من عناصرَ نُورانيةٍ لاتنتسب إلى المادة بشىء !

وأحسستُ يداً تُلاطِفُ كتِفى ، وسمعتُ « الشيخ عاد » يقول :

« ماذا تَفْعل ؟ أتحْلمُ بالنعيمِ الموعود ؟ »

فنظرتُ إليه طويلا، وأنا صامت، ثم أجبتُ فى خفوتٍ :

« بل أحلُم بالنعيم المفقود ! ».

فابتسمَ ابتسامةً خفيفة، وضغط يَدىَّ، ثم اقتادنى إلى النافذة، وهو يقول :

« انظر ! »

وانطلقت أتطلَّع من النافذة، فإذا حديقةُ القصر مبسوطةٌ تحتَ أعيننا، على مرتفَع شاهق. وعلى الرَّغم من ذلك، استطعنا أن نلمحَ شيئاً يتدحرَجُ فى ساحةِ الحديقةِ أمامَ الأشجار. وظللتُ أدققُ النظر، فتبينت شخصَ « مجاعص » فى هذا الشىء . . . يتمرَّغُ على الأرض، كما تتمرَّغُ الدابَّة الطَّروب. فقلت :

« إنى أمنحُ نصفَ عمرى، إن كان لى عمرٌ يستحقُّ الذكر، لمن يُنيلنى سعادةَ هذا الرجل ! »

وشهدتنا « مس إيڤانس » تشاركنا فى النظر، وهى تبتسم، وقد بدا عليها أنها استفادت أيما استفادةٍ من تلك الغفوةِ التى أغفتها . . . وقالت :

« إننا على ارتفاعٍ عظيم ! »

فقلت :

كأننا فى ذِرْوَةِ هَرَمٍ « خوفو » !

— كلما طال مكثنا فى هذا المكان العجيب ، تكشَّفَت لنا معالم جديدة تُورِثُ الدهشة .

ونظرتْ إلىَّ ، ثم قالت :

أفآسفٌ أنتَ لهذه المخاطرة ؟

فابتسمتُ وقلت :

« اذا كنتِ أنتِ تأسَفين ! »

— إنى شديد الغبطة بما يحيط بى من عجائب . والآن هيَّا نستأنف عملنا فى كشف القصر !

فتقدَّمَ « الشيخُ عاد » وقال :

« لقد ألقيتُ نظرةً على بقية القاعات ، فلم أرَ فيها جديداً ، ولكن لا بأسَ بأنْ تُسرِّحوا نظركم فيها . . . »

ومضى أمامنا ، وسرنا خلفه ، فاخترقنا بعضَ قاعاتٍ وممرَّات لا تختلفُ عما شاهدناه . وكانت كلها تربة ، يَدُلُّ مظهرها على أنها لم تطأها قدمٌ منذ أعوامٍ مديدة . . . ورأينا لبعض الحجَر مدافِنَ ، ولبعضِ نوافذها مغاليقَ من خشَبٍ غليظ أو من

حَجَر . ولاحظتُ على « مس إيڤانس » أنها قد لاذَتْ بالصَّمت ، فكانت تتلفَّتُ حولها تَلَفُّتَ الحالم . . .

ووصلنا أخيراً إلى بابٍ في نهاية المَمَرّ ، فقال لنا « الشيخُ عاد » :

« أكبر ظني أنه بابُ الخروج ! »

وسمعنا « مس إيڤانس » تنطقُ في شُرُودٍ بقولها :

« لا أدري لماذا يَدْعُونى : صفاء ؟ »

فحدَّقْنَا فيها صامتَيْن . . .

ثم راح « الشيخ عاد » يعالجُ فَتْحَ الباب ، وكان من خَشَبٍ غليظ . فلقِيَ بعضَ الصعوبة ، فأقبلتُ عليه أساعِدُه ، فتمكنّا من زحزحته ، وفَتْحِ مكانٍ لنا نَجُوزُ منه . فقد كان الخشبُ متماسكا ، مشدوداً إلى الحجر ، حتى ليكاد يكونُ معه بنياناً واحدا . . . ومررنا منه ، فَأَسْلَمَنَا إلى مَمَرٍّ ضيِّق أظلَمَ والتَوَى ، وكلما توغَّلْنا فيه أطبقَتْ علينا دَيَاجيهِ واشتَدَّت .

وقال « الشيخ عاد » في صوتٍ خفيض :

« قَبَّحَني الله ! لم أُحْضِرْ معي شمعاً ولا ثقاباً ! »

وبحثت أنا و « مس إيڤانس » عن ثِقاب معنا ، فلم نجد منْ شيء . فقلتُ :

« نعود من حيث أتينا ، فالطريقُ خلفَنا معروف . . . »

فقالت « مس إيفانس » :

بل نتقدم ، فربما أزحنَا النِّقابَ عن جديد !

— كيف يتجلّى لنا فى الدُّجَى شىء ؟

— أوَ تَظنُّ أن المكانَ سيظلُّ على إظلامه طويلا ؟

وأمسك بعضُنا ببعض ، وتقدمنا فى خُطاً وئيدة ، وكان الشيخُ رائدَنا ، يتلمَّسُ الطريق ، ويلقى علينا الأوامر . . .

وسرنا . . . وسرنا . . . واختلَّ توازُنُنا دَفْعة واحدة ، فوقعنا يَتَشَبَّثُ كلٌّ منا بصاحبه ، وهَوَينا متدهْورينَ فى مُنْحَدَرٍ زَلِق . وقبل أن نُفيقَ من دَهْشَتِنا وجدنا أنفسَنا فى الشَّبَكة الصائدة فى الحديقة ، ومن ثَمَّ تَسَاقَطْنَا على الأرض . وسمعنا قهقهةً عاليةً وضجيجاً ، فإذا « بجاعص » أمامَنا مُغْرِبٌ فى الضَّحِك ، وهو يقول :

« ما أحلاكم وأنتم مُعَلَّقون فى الشبكة ! ألا تُعيدُونَ الكَرَّة ؟ »

وقمنا ونحن نَنْفُضُ التُّرابَ عن ثيابنا ، وصرخ « الشيخ عاد » فى وجه « بجاعص » فأخرَسَه . . وما كدنا نسير بضعَ خُطوَاتٍ ، حتى التفتَ بعضُنا إلى بعض ، وغلبَ علينا جميعاً ضحكٌ متواصل !

ثم تفرّقنا : مَكثَ « مجاعص » فى الساحةِ بجوار الشّبكة ، أما أنا والشيخ ، فقصدنا إلى النّبع نسترِوحُ ببعض الحديث. وكانت وجهة « مس إيڤانس » الكوخ .

وبعد قليلٍ تململتُ فى جِلستى ، وتأهّبتُ للقيام ، فانفرجت شفتا « الشيخ عاد » عن ابتسامةٍ هادئة ، وقال :

حقاً لقد أبطأنا عليه !

— من تَعنى ؟

فقام ، وتأبط ساعدى ، وقال :

هيّا بنا . . .

— إلى أين ؟

— إلى الجريح . . . أتحسَبُنى أعنى غيرَه ؟

* * *

وصلنا إلى هنالك ، فصادفنا « مس إيڤانس » منحنية على الجريح تساعدُه فى تناوُلِ شرابٍ من وِعاءٍ فخاريّ ، فلما رأتنا قالت :

« لقد أعددتُ له عصيرَ فاكهة ، إنه فى حاجةٍ إلى التغذية الخفيفة ! »

فأجابها « الشيخ عاد » :

« حسناً صَنَعْتِ ! »

وكان الجريحُ يُقلبُ فينــا بَصرَه الحائرَ الحذِر ، وهو مُغَضَّن الجبين ، فقالت له « مس إيڤانس » :

« إنهما صديقــاى ، وإنى مدينةٌ لها بفضلِ الاهتداء إلى هذا القصر ! »

فانبسطتْ أساريرِ وجههِ شيئاً ، ولم يتلفظْ بحرف . ورفع رأسَه يحيّينا ، فأقبل عليه « الشيخ عاد » هاشّاً باشّــا ، وهو يقول :

« كيف أنت الآن ؟ »

فقال فى همْس :

بخير !

إننا آسفون لما وَقع لك . . . كان خطأ غيرَ مقصود !

فأجاب فى لهْجَةِ يقين ، وهو يَزُمُّ شفتَيْه عَقِبَ كل كلمة :

« ليس ما وقع بخطأ ، إنما هو العدلُ الإلهىّ أتقبّلهُ راضياً قريرَ العين ! »

ثم عاد يَنهلُ من الإناء ، تُقرِّبهُ إلى شفتيه « مس إيڤانس » .

وبعد أن ارتوى مَسَحَ براحته فمَه ، وأسند ظهرَه إلى كُومَةٍ من العُشب ، ثم أرخى جفنَيْه !

وبعد لحظةٍ تكلم بصوت خافت ، وهو ممسكٌ بيد « مس إيفانس » ، قائلا :

« إنى أراكِ الآن فى ثياب العُرْس ، والعذارَى يحِطْنَ بك . . . أراك مثلاثةً تَفِيضينَ حياةً ونورا . . . ثم أرى العَذَّارَةَ صُوِّبتْ نحْوَكِ ، والرصاصةَ مخترقةً قلبَكِ . ثم . . . »

واختَبَسَ صوته ، فلم نَعُدْ نسْمَعُه ، وإن كانت شفتاه ظَلَّتا تَتَمَوَّجان !

ورأينا خَيْطَيْن من الدموع يتهاديان على خَدَّيْه !

وما هى إلا فترةٌ قليلة حتى سكَنَتْ حركةُ شَفَتَيْه ، وكانت « مس إيفانس » تُلاطِفُ يدَه ، ثم نظرت إلينا تقول :

« مسكين ! »

وكان مَنْظَرُه حقًّا يَسْتَدِرُّ الرِّثاء !

ولم البَثْ أن وَجدتُنى أندفع قائلا :

« لا ريب أنه فَقَدَ عقله ! »

ففتح عينه ، وصوَّبَ نظرَه إلىّ مُحَدِّقاً ، وقال :

« كلا ، ياسيدى ، لستُ مجنوناً ! إن المجنونَ لايستطيعُ أن يمكُثَ غيرَ مُجبَرٍ خمسةً وعشرينَ عاماً فى هذا المكان ! »

فقالت « مس إيڤانس » وقد اتسَعَت حدَقةُ عينيها :

أنتَ فى هذا المكانِ منذُ رُبعِ قرن ؟

— لم أبرحْه دقيقةً واحدةً طوالَ هذه الحِقبَة

فابتسمتْ ابتسامةَ إشفاق ، وهَجَسَتْ :

« أليس هذا هو الجنون بعينه ؟ »

ولم أكد أُتمُّ جملتى ، حتى رأيتُ الجريحَ يَشرَئِبُّ وقد احتقَنَتْ عيناه ، فكأنهما جمرتان تتلهَّبانِ .

وأمسكَ بالإناء الفارغ ، وهو يصيح :

« اسكت ، وإلاَّ شَجَجتُ رأسَكَ بهذا ! »

فهدَّأَتْ « مس إيڤانس » من رَوْعِه ، ومال علىّ « الشيخُ عاد » ينصَحُ لى بالتزام الصمت . فانتحيتُ ركناً غيرَ بعيد ، ولبِثْتُ أراقبُهُم ، وأُصغِى لما يتبادلونَه من حديث .

قالت « مس إيڤانس » للجريح :

« اصْدُقْنى القولَ ، من أنتَ ؟ »

فقال لها وقد لطُفَ صوته ، وخفَّتْ حِدَّتُه ، وتحيَّرَ الدمعُ فى عينَيه :

صفاء ؟ ! أنسيتِ مَنْ أنا ؟

— قُلْ بربك ، من أنتَ ؟ من أنتَ ؟

— يالك ! أنسيتِ يوسفَ الصافى ؟

— حفيد الشيخ بشير الصافى مشيِّدِ القصر ؟

— إذاً بدأتِ تتذكرينى !

— ولكن يوسف الصافى انتحر !

ووَضحَ الإعياءُ بغتةً على وجه الجريح ، فانحنى « الشيخ عاد » على قلبهِ يتسمّع ، ثم قال :

« يجب أن يرتاح ! »

ورأينا « يوسف » قد تراخى جفناه ، وانسابَ بهِ الكرى . فهمس « الشيخ عاد » فى أذنِ « مس إيفانس » ثم تركا الرجل ، وجاءا إلىّ . وذهبنا إلى النّبع ، ونحن سكوتٌ ، وجلسنا شِبْهَ دائرة ، نحدّقُ فى كلمةِ « صفاءَ » المنقوشةِ فى الصخر الأملس ، تتدفّقُ عليها مياهُ اليَنبوع ، فتدعها تختلجُ حروفُها ، كأن لها قلباً حيّاً يَنبِض !

وبعد حين قال « الشيخ عاد » :

« إن السرّ يُوشكُ أن ينجلِيَ . . . »

فقلتُ :

كيف ؟

— إذا كان الرجلُ صادقاً فى زعمه ، فإن قصةَ انتحاره التى نقلها إلينا الرواة ، إشاعةٌ مختلَقَة !

فقلتُ :

أَوَ تظنُّ أنه صادقٌ فيما زعم ؟

— أميل إلى تصديقه .

وَبَرقَتْ عينا « مس إيفانس » وقالت :

« أما أنا فأعتقد أنه غيرُ كاذب »

فطأطأت رأسى ، وعَبِثتُ فى الأرض بعود يابس ، وقلت :

« قد يكونُ صادقا ! . . . »

° ° °

وطالت جلستُنا : فقال « الشيخ عاد » :

« إنى لا أرى بماعص ! »

فقلت :

لقد صحتَ به صيحةً أوقعتْ فى قلبه الرُّعب .

— لقد أساء الأدب .

— ولكن لا تنس أن موقفنا كان مُثيراً للضَّحِك

— ما كنتُ أتوقعُ لنا هذا الحادثَ مطلقاً .

— غريب أن ينتهىَ مَطافُنَا فى القصر قريباً من فَوْهَة الدخول !

— ليتنا كنا على عِلْمٍ بذلك فى أولِ الأمر !

ونهض « الشيخ عاد » يبحث عن « مجاعص » وبقيتُ و « مس إيڤانس » وحدَنا فى المكان . وبدأنا نسمعُ صوتَ « الشيخ عاد » يُنادى « مجاعص » ، فتُرَدِّدُ جوانبُ البقعة صداه فى رنينٍ سحرىّ ، وكنت جالساً القُرْفُصَاءَ صامتاً وعيناى تحدِّقانِ أمامى تحديقاً شارداً ، وقد شَعَرْتُ بموجة من الأسى تطغَى على نفسى ، إذ استَعدْتُ فى خاطرى ما جرى بينى وبين الجريح من جَدَلٍ لم يخلُ من حِدَّةٍ وعُنف .

وبعد فترة طويلة من الصمت ، شعَرت يد « مس إيڤانس » تُلاطِفُ يَدِى ، وتقول :

« أمستاء أنت ؟ »

ولم ألتفتْ إليها ، وظَلِلْتُ على حالى أحدِّقُ أمامى ، وقلت :

مستاءٌ من ؟

— منه ! ·

— كلا . . . اطمئنى من هذه الناحية . وهل أعير اهتمامى شخصاً مخبولا ؟

— لماذا يصطبغ حديثك فى شأنه دائماً بهذه اللهجة القاسية ؟

— وأنت . . لماذا تظللينه دائماً بهذا العطف الغريب ؟

— ألا يستحق منا هذا العطف ، بعد أن كدنا نقتله ؟

— لو لم نبادره بهذه الضربة ، لقضى علينا جميعاً . إنه من قطاع الطريق ، وقد انتحل شخصية من شخصيات الأساطير ، يخفى تحتها شخصيته الزائفة . إنه يمثل دوره فى إتقان ، وقد قدر على أن يستهويك ، فيخضعك لسلطانه السحرى !

— ماهذا ؟ ألا تخجل من قولك ؟

— إنى لا أخجل من قول الحق ، وإسداء النصح !

— بل إنك لتغار منه . . .

جابهتها ، وحدقت فيها بشدة ، كأنما يتطاير من عينى الشرر ، وقلت :

« أنا أغار منه ؟ . . . أنا ؟ » .

ولم أزِدْ على هذا ، ولم تجب « مس إيفانس » بحرف .
وبَقِينا على هذه الحال بلا كلام ، يحدّقُ كلٌّ منا في صاحبه.

وأخيراً ألفَيتُ « مس إيفانس ، تَنبِل جفنَيها ، وتقول لى فى لهجة محزونة :

« إنى آسفة ! أرجو أن تنسَى ما وجّهتُه إليكَ من قول...»

فخَفَضْتُ رأسى ، وأنا أَجمجِمُ :

« وأنا أيضاً شديدُ الأسف على ما بَدَرَ منى . أرجو أنه تسامحينى ! »

وأقبل « الشيخ عاد » فرآنا على هذه الحال ، فادرك كلَّ شىء ، ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظْ شيئاً .

ثم قال :

« إن المخبولَ مجاعص غيرُ موجود ! »

فقلت :

كيف ؟

— بحثتُ عنه فى كلّ مكان ، فلم أعثر عليه .

— قد يكون مختبئا فى موضع خفىّ هَرَباً منا . . .

فقال « الشيخ عاد »

«ربما كان الأمر كذلك !»

* * *

وقضينا النهارَ بأكمله نبحث عن «مجاعص» فلم نجدْ له أثراً فاشتدَّ قلقُنا عليه . . . وكانت «مس إيفانس» «والشيخ عاد» يَعُودَانِ الجريحَ فى الحين بعد الحين، أما أنا فقد فَضَّلْتُ ألا أزورَه وألا أبدأ حديثاً فى شأنه . ولكننى علمتُ من الشيخ أنه مازال يَهْذِى باسم «صفاءَ» ويَرْوِى نُتَفاً متَقطِّعة مختلفة تصِفُ مَصْرَعَها فى حفلة عُرْسِها . . .

ولما هجمتْ حَنَادِسُ الليل، وسار كلٌّ منا إلى مخدَعه، اعترانى هَمٌّ ثقيل، جَثَمَ على صدرى، هَمٌّ قد اختلَطَ بخوفٍ وجُبْنٍ . ودخلتُ المغارةَ فى خُطاً متردِّدَة، ثم أقبلتُ أبحثُ مدققاً : أهناك بابٌ آخر أومكان مستترخلفَ الجدران؟وأحكمتُ إغلاقَ البابِ المفضِى إلى سِردابِ القصر، وأردتُ أن أرُدَّ بابَ المغارةِ أيضاً، ولكننى لم أفعلِ، إذْ وجدتُ فى تركه مفتوحاً بعضَ الطمأنينة، فقد أحتاجُ إلى المعونة، فأنادِى بعضَ الرفاق، فيَسْمَعُ صوتى، ويَخِفُّ لنجدتى . . . ولكن مِمَّنْ أخاف؟ ولماذا أطلبُ العون؟ ذلك ما لم أكن أملكُ الجوابَ عنه !

وأشعلت المِدْفأة لأستنيرَ بضوئها ، واستدفئَ بحرارتها . واستلقيتُ على الهشيم ، وقد دَعَمْتُ رأسي بيدى ، وانطلقتُ أحدِّق فى سقف المغارة الكثير النُّتوء ، ونار المِدفأةِ تتلاعب عليه فى أشكالٍ بشِعة . ورحت أفكر فى هذه العلاقة العجيبة التى نشأت بين « مس إيڤانس » والجريح ، وجَعلتُ أجمِّع أمام عينىَّ ما وقع لى معها اليومَ من مشاحنة ، وأستحضِرُ اتهامَها إياى بالغَيْرةِ من الجريح .

وتكالبت علىَّ الهموم ، وأحسَسْت كأن يداً تأخذ بمخنَّقى... لماذا قبِلتُ أن آتىَ معها لكشفِ هـذا القصر المشئوم؟ لقد بتُّ أكرَهُه كما أكرهُ صاحبَه . . . لم لا أتركه وأعودُ من حيث أتيتُ ؟ . . . و « مس إيڤانس » ؟ . . . أفأدَعُها بين ذراعَىْ ذلك الجريحِ المخبول ؟

وخُيِّلَ إلىَّ أنى أسمعُ صوتاً يعْوِى فى مكانٍ سحيق ، وأرهفتُ أذنىَّ أصغى فى انتباه . . . أهناك ذئابٌ تحيط بنا ؟ لست أدرى !

ونهضت أغلِق بابَ المغارة ، وعدت إلى الهشيم فارتميت عليه . . . وتعالى العُواءُ ثانيةً . أعواءُ ذئب هو ، أم صوتُ

آدمىّ ؟ لم يتبينْ لى حتى الآن شىء . . . إنه ليس صادراً من بعيد ، كما توهمت بادىءَ بدء ، فهل هو صوتُ حبيسٍ خلفَ الجدران المحيطةِ بى ؟

وتذكرتُ غَيْبة « مجاعص » ، فاختلجَ جسمى اختلاجة مفاجئة . لم لا أذهب فأدعو « الشيخ عاد » ؟ وجلست على فراشى أحدّق فى باب المغارة ، واستمهلتُ نفسى وقتاً ، وأرهفت أذنى كلَّ الإرهاف ، ومكثتُ على هـــذه الحال مدة ليست بالقصيرة أتسمّع ... قد يكون هذا العواءُ صدّى لصوت نفسى العليلة المضطربة . إن أعصابى ثائرة ، وإنى فى حاجة إلى شجاعة نفسية كبيرة لضبطها . . . فألقيت بجسمى على الفراش ، وأرخيت أجفانى ، وأرغمت نفسى على النوم ، كما أرغمتها كذلك على التفكير فى شؤون أخرى ، بعيدةٍ كلَّ البعد عما كنت أجيل خاطرى فيه .

وكدت أنجحُ فى مسعاى ، وشعَرت بطلائع النُّعاس الأولى تغزُو رأسى...وانتبهت مذعوراً ، وأنا أتلفت حولى ، وكلّى أذن صاغية : أيكون ما سمعته اللحظةَ حُلماً أم حقيقة واقعة ؟

ورأيتنى أقفزُ من فراشى ، وأترك المغارة عدْواً ، آخذاً سَمْتَ

إلى مَبيت « الشــيخ عاد » ، وما إن وافيْته ، حتى جعلت أهزهُ ، وأقول :

« استيقظ ! استيقظ ! »

فرفع الشيخ جفنَيْه مرعوباً ، وقال :

ماذا ؟

— سمعت صوتَ استغاثة . . .

— استغاثة « بجاعص » ؟

— لا أدرى على وجه التحقيق ، يخيَّل إلى أنه حبيسٌ فى مكانٍ مجهول .

— حبيس ؟ ومن حبسه ؟

— من يَدْرى ؟ قد يكون فى قبْضةِ شيطان عنيد . . .

فنظر إلىَّ مَليًّا ، وهو يتفحَّصُنى ، وقال :

أمستيقظٌ أنت ؟

— تمامَ اليقظة . . . يجب أن نغادرَ هذا الموطن الممقوت ، يجب أن نُبارِحه من الغد . وإن استطعنا الليلةَ أن ننتقل ، كان أوفقَ وأمثلَ .

— هدِّئْ من رَوْعِك . . . أراكَ مضطرباً !

وناولنى قليلا من الماء ، فشربته ، وقلت على الأثر :

وهى . . يجب أن ننجيها منه . إنها تحت تأثير مغنطيسى شديد !

— ولكنك تحدثنى فى أمر « مجاعص » ! وتذكر لى أصوات استغاثة !

— لا أدرى ! لا أدرى !

— قم بنا إلى المغارة ، وسأتبين الأمر بنفسى ، فإذا كان ما سمعته أصواتاً حقة ، بدأنا نبحث عن « مجاعص » فوراً .

وقمت معه إلى المغارة ، وجلسنا على الهشيم ننصت فى انتباه ، وأمامنا نارُ المدفأة ، وقد أخذت جذوتها يسرع إليها الخمودُ فنُحِسُّ الظلمة والبرودة تشيعان حولنا رويداً . . .

وما هى إلا أن عاد الصوتُ ثانية . . . سمعته واضحاً هذه المرة ، فما كاد يبلغُ أذنَ « الشيخ عاد » حتى استوى فى وقفته ، وقال :

« إنه مجاعص . . . هو بعينه ! »

ثم خطف من الموقد جذعاً طرفهُ ملتهب ، وقال :

« اتبعنى ! »

ورأيته يتجه نحوَ البابِ المفضى إلى السِّرْداب ، الذى دخلنا منه إلى القصرِ هذا الصباح ، فسرتُ خلفَه . وأوغلنا فى السرداب ، وكان منظرُه على ضوءِ ذلك المشعَلِ الخافتِ مرهوباً مفزعاً ، وسرنا والشيخ يتسمَّع يَمْنَةً ويَسْرةً ، وترادَفَ الصوتُ ، ولكن فى ضعف وتراخ ، فتبينت لى فيه استغاثة مكروبة لاهفة . . . وقال « الشيخ عاد » :

« لقد أحسنتَ صُنْعاً إذ أيقظتَنى . . . . إن المسكينَ فى مأزقٍ حرجٍ ! »

ورأيتُه يَصْعَدُ الدَّرَجَ فى بُطْءٍ شديد ، وهومازال يَتنصّت ثم إذا به قد وقف دَفْعةً واحدة ، وأخذ يتراجَعُ إلى الوراء ، وصاح وعيناه تحدّقان حيثُ موطئُ قدمَيه :

« انظر ! »

فتقدمتُ خُطْوَةً ، ونظرتُ باحتراس ، فوجدتُ أمامى فجْوَةً دامسَة كأنها فوْهَةُ بئر ، فقلتُ وأنا أرتعد :

لم تكن موجودة فى الصباح

— من حُسْنِ حظنا . .

— وكيف وُجِدَتْ ؟

— هذا ما لا أعرفه على وجه اليقين . غير أنه لا بد أن الدرجتين اللتين كانتا تُغَطِّيَانها ، لم تكونا من صميم الدَّرَج المحفور ، بل كانتا منفصلتين عنه . أما كيف سقطتا ، «مجاهيل» فذلك سرٌّ من أسرار هذا القصر !

— أهو هُنَالِك ؟

ولم أُكمل جملتي ، حتى تنامى إلينا صوتُ المسكين ، وكأنه آتٍ من مكانٍ قصيٍّ . . فصاح «الشيخ عاد» يُطمئنه ، ثم التفتَ إليَّ ، وقال :

عليَّ بالحبل !

— الحبل ؟

— لأتدلَّى به إلى حيثُ هوى .

— لا أذكر أين وضعناه ؟ ..

— ولا أنا أيضاً . . . قد نكون نسيناهُ في خارج القصر ولكن يوجدُ في كوخ «يوسف الصاقي» — أعني حجرةَ «مس إيفانس» — شيءٌ يشبه الحبل ، يَصلحُ لهذه الغاية .

— أو تستطيع الحصولَ عليه في هذه الساعة ؟

— يجب أن نحاولَ المستحيل ، لإنقاذ روحٍ إنسانية تستغيث . . . هيَّا !

— ماذا ؟

— اذهبْ إلى الكوخ ، وجئنى بما طلبت .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » متحيراً ، فوجدته يَرْنو إلىّ بنظرة ثابتة . فأطعته ، وخرجت أتحسّسُ طريقى فى الظلام المدلهمّ .

وأخيراً وصلتُ إلى الكوخ ، فوقفت أمامَ الباب متردّداً . ثم طرقتهُ بعض طرقات . فأجابت « مس إيفانس » وقد بان الرُّعبُ فى صوتها :

من ؟ . . من يَدقُّ البابَ هكذا ؟

— أنا . . أنا يا « مس إيفانس » !

— أنت ؟ . . . ماذا جاء بكَ فى هذه الساعة ؟

— افتحى ! . . . أمرٌ خطير . . .

وشَعَرْتُ بها تستوى على فراشها ، ثم انقضّت هنيهةٌ لم تتحرك فى أثنائها ولم تتكلم ، فهل خامرها شكٌّ فى طويّتى ؟ وهل ظنت أنى أحتالُ عليها لغرض فى نفسى ؟ فصحت ثائراً :

افتحى ! افتحى ! إنهُ يُحتضَر !

وأحسَسْت بها تثبُ عن السرير ، وفى طرفةِ عينٍ وجدتها بالباب أمامى . وقالت فى جَزَع :

احقاً أنه يُختَضَر ؟

وفهمتُ على الفور من لهجتها مَنْ تعنى . وأدركت هي من تراخيّ في الإجابة أنها تعجّلتْ في إزاحة النقاب عن عواطفها . . . وقلتُ في تمهّلٍ :

« إن الشيخ عاد أرسلني لأحضر له حبلاً . . . »

وأوضحتُ لها بإيجاز قصةَ الدرجتين اللتين مرّتا بـ « مجاعص » في منقطٍ يُشبه البئر . . . وكانت تُصغي إلى في انتباه ، ونور الهلالِ الغاربِ يُلقي بضوئه المتخاذلِ عليها ، فيزيدُ في فتنتها ، وهي تخطرُ في ملابسها الساذجة ، وخصائلُ شعرِها الطليقِ تترسّلُ على كتفيها . . . ووقفتُ قليلا لا أتكلم ، أناجي بعينيّ ذلك السحرَ الخلاّب !

وسمعتها تقول :

« تقدم ، وادخُل ، ولنَبحثْ عن الحبل . »

ودخلنا ، فلم نجد حبلنا القديم ، وثبت لنا أننا تركناه في خارجِ القصر في المغارةِ الأخيرة . فجمعْنا ما في الكوخ من ألياف تصلح لأن يُصنَعَ منها حبل ، وذهبنا بها إلى مكان « الشيخ عاد » ، فهَمَس قائلا :

« أخشى أن يكونَ قد فاتَ الوقتْ ! »

فقلتُ فزعاً :

كيف ؟

— لقد صرختُ أناديه مراتٍ كثيرة، فلم يرجعْ إلىّ من جواب !

فغمغمتْ « مس إيڤانس » :

« المسكين ! »

وقلتُ :

« قد يكون مُغمىً عليه ! »

فأجابني « الشيخ عاد » في حسرة

« قد يكون ذلك ! »

وأقبلنا نحن الثلاثةَ على أشتاتِ الألياف نفتلها ونجعلُها حبلاً متيناً . وكنا نعملُ بهمّةٍ ونحن صامتون، والسكونُ حولنا ساكنٌ في رهبةٍ كئيبة، كأن العالمَ كلّه يشاركنا في جزعنا على ذلك الرفيق المنكوب !

وطال بنا الوقت، فلم نيئس، وأتممنا عملنا . وشدّ « الشيخ عاد » الحبلَ إلى ظهره، وجعل يتدلّى في الفوهةِ ،

وبقيتُ و« مس إيفانس » قابضَين على الحبل ، نُرْخيه شيئاً فشيئاً متريّثَين حذرَين من كلّ طارئ . . . . وكان الجذعُ الملتهبُ في يدِ الشيخ ، يستنيرُ به . وأخيراً شعَرْنا به يصِلُ إلى القاع ، وسمعناه يقول :

« كفى ! »

ومضى وقت وأنا و « مس إيفانس » نُحدّق في تلك الفَجوَة الداجيَة ، تهُبُّ علينا منها ريح رَطبَةٌ كريهة ، ورأينا الشُّعلة في قاع البئر كأنها بَصيصُ ثِقاب . . . وكنا نتتبّعُها بأعيننا في حركاتها الضئيلة ، وهي تروح وتجيء ، ثم استقرتْ في مكانٍ واحد .

وشعرتُ بيدَيّ ترتجفان ، وهما قابضتان على الحافَة . . ولم تكن « مس إيفانس » بأقلَّ مني اهتياجا . ولما طال صمتُ « الشيخ عاد » همستْ « مس إيفانس » في أذني قائلةً :

أتُنَاديه ؟

— الأفضل أن نتركَه حتى يستكملَ فحصَه .

ومضى الوقت ، وتحركَت الشعلةُ في اتجاهاتٍ متعددةٍ . ثم سمعنا صوتَ « الشيخ عاد » يقول :

« اجذِبُوني ! »

فأخذنا نجتذبُ الحبلَ ، ورأينا الشعلةَ تتصاعدُ في تباطؤ ، وأحسست يديَّ تتخاذلان ، بخفتُ العاقبة ، وضاعفتُ من عزيمتي حتى ظهر « الشيخ عاد » وتعلّق بالفوهة متحفزاً للخروج ، فوهنتْ قوَى كلَّ الوهن ، وجلستُ مُسْنِداً ظهري إلى الحائط ، أستمع إلى دقاتِ قلبي السّراع . . .

وخرج « الشيخ عاد » وأخذ ينفُضُ الترابَ عن ثيابه . وكان وجهه متجهّماً ، وعيناه محتقنَتَين ، ولم تطاوعه شفتاه على أن يَنْبِسَ بحرفٍ ما ، ففطِنّا إلى كلِّ شيء . . .

ووجدت « مس إيڤانس » قد أخفتْ وجهَها بين يديْها ، وانفجرتْ باكية . . . . فاحتبَستْ أنفاسي ، وشعَرْتُ بالنار تتأجّج في رأسي ، فصحتُ كالمجنون :

« فلنترك هذا القصرَ المشئوم ! يجب أن نتركَه على الفور ! »

واندفعتُ أمزّقُ صِدَارِي ، فأقبل عليَّ « الشيخ عاد » وأمسك بيديَّ ، وقال :

« أهكذا تكونُ مواقفُ الرجال ! »

وانتقلنا إلى المغارة ، أعني حجرتي ، وجلسنا على مَقْرَبَةٍ من المدْفَأة ، وقد أفاض كلٌّ منا في صَمْتِه المضطرب !

ثم نمنا حيثُ جلَسْنا ، ولم يُغيِّرْ أحد منا الوَضْعَ الذي كان عليه .

وقضينا اليومُ التالىَ فى عملٍ فاجع ينفُث فى النفسِ سمومَ الغمّ والأسى . فأخرجنا جثةَ « مجاعص » وقمت أنا « والشيخ عاد » بِغَسلها وتكفينها على حَسَب الشريعة ، ثم صلَّينا عليها ، وبعدئذ دَفناها فى دَغَل من أدغال الحديقة . أما « مس إيفانس » فقد لزِمَتْ حجرتَها ، حتى انتهينا من عملنا ، فجاءت إلى قبره ، ونثرت عليه طاقةً من الزَّهَر !

لا أدرى كيف احتملتْ أعصابى هذه المشاهدَ المرهوبة ، فلن أنسى ما حييتُ مَنظرَ الجثّة ، وأنا أجذِبُها إلى الفوْهة ، فتصعَد على مَهَل ، وتُطِلُّ على رأسها المهشَم ، والدمُ التَرِبُ المنعقد يلوِّثُ ملامحَها المتقلّصة . . . ولا أنسى ما عانَيتُ من المشقّات فى سبيل إخراجها ، لقد كنت أحتضنُها وأنا أشدُّها شدًّا ، فأجد رأسَها يترنَّح ، ثم يستريحُ على كَتِفى !

هذه صورة لا تزال محفورةً فى أعماق مُخيِّلتى ، تتراءى لى بدقائقها حيناً بعد حين !

قضينا يوماً أقتمَ ، يغشاهُ سكونٌ ثقيل ، لم نتبادلْ فيه

الكلمات إلا لِمَاما . . . كلٌّ منا مُنْطَوٍ على نفسه يفكّرُ في هذا الحادث ، وكأنه يفكّرُ في الوقتِ نفسِه في مصيره هو أيضاً . . .

ولما جنَّ الليل ، أعددتُ فراشي بجوار فراشِ « الشيخ عاد » فلم أعد أحتمل النومَ في الغارِ وحدى . . . ومن حُسْنِ حظى أنى رحتُ في نومٍ طويلِ المدى ، عوّضتُ به كثيراً من متاعبي وآلامي .

* * *

وفي الصباح قلتُ لـ « الشيخ عاد » وكنتُ جالساً وإياه بجوار النَّبْع :

أيّةُ بئر هاته التي تردّى فيها المسكينُ مجاعص يرحمهُ الله !

ـــ لم يكن مَصْرَعُه في بئر ، إنما هو مكانٌ فسيح لم أعرفْ أين يبدأ ولا أينَ ينتهي . . . عثرتُ فيه على بقايا عظام .

ـــ عظام ؟

ـــ أجل ، عظام بشريّة نخِرَة !

— أمَثوَى قتلةٍ أشرار هو ؟

— . . . كلما طالت إقامتُنا فى هذا القصر ، ازدادت أسرارُه تعقيداً و تعمية !

ومرت أمامنا « مس إيفانس » تحملُ عصيرَ الفاكهة للجريح ! فحيتنا بابتسامةٍ خفيفة ، فأجبْناها برفعِ اليدِ إلى الرأس .

ثم أستشَاثرَ بنا صمتٌ طويل . . .

ووقعت عينى على اسم « صفاءَ » المحفورِ على صخرة النَّبْع ، وهو يَرْتعِشُ تحتَ الماء ، فقلتُ لجليسى :

« أما زالَ يدعُوها صفاء ؟ »

فرفع « الشيخ عاد » رأسه ، وقال :

كلا !

— ولِمَ !

— إنَ وطأةَ الجنّى قد خفّتْ عن ذِى قبل .

— إذاً لقد كان يهْذِى . . .

— يلوح لى أن كلَّ ما قاله لم يكنْ هذياناً ، فالحى لم تُطلِقْ لسانَه باكاذيبَ ولا بأوهام ، وإن كانت قد خلَطَت فى رأسه المشاهد ، وَمَزَجتْ بين الخيال والحقيقة ، فتراءت له « مس إيفانس » كأنها « صفاءُ » ذاتها تُبْعَثُ ثانياً .

— ماذا تَعْنِي بذلك ؟

— لقد بدأ الآنَ يعتقد أن « مس إيڤانس » و « صفاء » شخصان متغايران .

— أيكونُ بين كليهما تَشَابهٌ ؟

— أُرَجِّح أن « مس إيڤانس » صورةٌ ناطقة لـ « صفاء » تلك التي أَحبَّها فيما مضى . . .

وعاوَدَنا الصمتُ .

رأينا « مس إيڤانس » راجعةً تَتَّجه صوْبَنا ، وجاءت فجلست إلينا ، وقالت :

لقد رَوَى لِيَ الساعةَ شيئاً من قصَّة غرامه !

— أهُناكَ اختلافٌ بين ما رواه ، وبين ما نعرفه من هذه القِصَّةِ ؟

— اختلافٌ قليل فى التفاصيل . أما القصة فى جوهرها فهى كما عرفناها من قبلُ .

فالتفت إلى « الشيخ عاد » وقال :

إذاً فهو « يوسف الصافى » بعينه ، وإلا فكيف اتفقت روايتُه والروايةُ التى يتناقلُها الناسُ عنه ؟

فقلت وأنا أداعبُ الرمل :

« وكيف تفسّرُ إذاً قصةَ انتحاره ؟ »

فقالت « مس إيفانس » :

إن وجودَه يَنفيها . . وقد سَخِرَ منها حين قصصتها عليه .

— وماذا قال إذاً ؟

فأخذتْ « مس إيفانس » تُصلِحُ خصائلَ شعرها السَّبْطِ المتموّج . . . ثم قالت :

« لقد روى لى كيف أن أبا حبيبته رفض أن يُزَوِّجَه إيّاها ، وآثر أن يزوّجها غيرَه . فاعتزم أن يقضىَ على نفسه وعلى حبيبته فى وقتٍ واحد . وكاشَفَها بالأمر ، فرضيَتْ مغتبطة . واختار ليلةَ زفافها إلى غريمه موعداً لإنفاذ عزْمه . وجاء الحفلةَ متنكراً ، ودخلَ عليها فى مِنَصّتها ، فوجدها واقفةً بين صُوَيحباتها ، فأطلق عليها رَصاصة من غدّارته ، فسقطتْ على الأرض من ساعتها . . . »

وسكتت « مس إيفانس » وعيوننا متعلقةٌ بها . ولما طال صمتُها ، قلت :

وانتحاره ؟

— لقد قال لى ، وقد أسبَلَ جفنيه النَّدِيَّين بالدموع : « ولما أردت أن أرفع الغدَّارةَ إلى رأسى لأُطلِقها ، لم تطاوعنى يدى ، وفى لمْحِ البَصر توارَيت . . . كيفَ ؟ . . . لا أدرى ! » ثم انخرطَ فى البكاء ، فأشفقتُ عليه من الكلام ، ورجوت منه أن يهدأ .

وانصرمتْ أيامٌ أُخر ، وكنت ما أزالُ آخذاً بخطَّتى السلبية نحو الجريح ، فلم أذهبْ لزيارته ، وتحاشيْتُ التحدث فى أمره مع « مس إيڤانس » إلا إذا اقتضتْ ذلك الضرورةُ القُصْوَى .

واعترانى انقباض ملازم ، فلا أذكر أن شفتىَّ قد تحركتَا بابتسامة ، ولا انبسطتْ أسارِيرى مرةً واحدة فى إشراق . فكنتُ أقضِى اليوم ساهما مطرقاً ، أقطعُ الساحة جيئةً وذَهاباً . فإذا مَلِلتُ السَّير فى هذه الساحة ، دخلت فى الحديقةِ أجوسُ خلالَ خمائلهـــا وأدغالها . وكثيراً ما لبثتُ وقتاً أمام قبر « مجاعص » أفكر فيه ، وأستعيدُ بالذكرَى ما مرَّ بنا من الحوادث معه !

وكانت « مس إيڤانس » تمرُّ بى ، وأنا فى الساحةِ أقطعُها بخُطواتى الثابتة المملولة ، فتنظرُ إلىَّ بعينيها الصافيتين ، ثم

تبعث إليَّ بابتسامتها الخفيفة ، ابتسامة يكسُوها الشجنُ ويخالطها التحسّر ، فأتقبلها كما يتقبل الفقير المعدم الصدقة بعد صبر وحرمان.

وقدِمَتْ عليَّ مرةً وأنا فى الساحة أحدِّق فى كلمة « صفاء » المحفورةِ فى الحجر بخطٍّ كبير . . . فربَّتتْ كتفى ، وقالتْ وهى تنظر إلى يدَيْها :

« لن تطولَ إقامتُنا فى هذا الموْطِن ! »

فحدقت فيها ، وقلتُ مهتاجاً :

أحقاً ؟ ومتى اعتزمتِ الرحيل ؟

— بعد بضعة أيام ، ريثما يسترد الجريحُ قواه .

وسكتتْ ، وسكتُّ أنا أيضاً . . . وما فتِئتْ هى تنظر إلى يديها ، تتأمّلهما تأمُّلا طويلا . ثم قالت ، وقد تغيَّر صوتها :

أشعر بأنى مسئولة عن كلِّ ما حلَّ بكم من مصائبَ وآلام ؟

— كيف ؟ لقد جئنا بمحض اختيارنا ! . . .

— لولم أحضُر إلى الفندق ، لما كان من هذا شىء ؟

— كلُّ شىء رهنُ الأحوالِ والأقدار . . . ثِق بذلك كل الثقة .

— لقد سبَّبتُ لكم متاعبَ كنتم فى غنًى عنها .

— الحق يا « مس إيڤانس » أنه لولا مصرع « بجاعص » لما أسِفت على شيء مما نالني من جهد . ولكنّ أمثالَ هذه المغامرة لا تمرُّ بسلام ، فهي تخلّف وراءها ذكرَى فاجعة .

— لم أكنْ أرضَى أن تكونَ المصيبة في سوايَ ، خلالَ هذه المغامرة الجنونيَّة .

فقلت في تلهف :

« أمتأسفةٌ أنتِ على حضورك ؟ »

فنظرتْ إلى كلمةِ « صفاءَ » أمامها على الحائط ، وصمتَتْ فترةً ، ثم أجابت :

« كن على يقين أنه لن يَطولَ أمدُ إقامتكَ هنا ! »

وسارتْ بخُطاً خفافٍ ، وغاب في مُعاطفِ الحديقة شبحُها .

* * *

وتلاحقتِ الأيام . . .

وبينما كنت مرة في الساحة أذرَعها بخطواتي التي يتوضح فيها المللُ والسآمة ، إذ رأيت « يوسف الصافي » يخرُج من الحديقةِ متوكئاً على ذراع « الشيخ عاد » تسير بجانبه « مس إيڤانس » . . . وكان « يوسف » يخطو متمهّلا أشدَّ التمهل ،

وقد هزل جسمه ، وشحب وجهه ، فزال شيء كثير من معالم خشونته .

وألفيته يتقدم نحوى ، تلتمسح على فمه ابتسامة وديعة ، فوجدت نفسى أتقدمُ نحوَه . ولما التقينا مددتُ له يدى ، فأطبقَ عليها يديه ، وضغطها فى كثير من التلطُّف ، وقد انبسطت ابتسامتهُ ، وبرقت عيناه بنظرة مودّةٍ ووفاء ، وقال مداعباً فى صوتٍ ليّنِ النّبرات :

« أهلا وسهلاً بقاتلى ! »

فهمست قائلا :

لم يكنْ يقعُ ببالنا أن « يوسف الصافى » يسكنُ قصره . . . كنا نظنّ . . .

— كنتم تظنون أن هناك وحشاً أو قاطعَ طريقٍ يريد اغتيالكم . . . لم أحسِنْ ضيافتكم . . . اعذِرونى !

وسرنا حتى النّبع ، فرغبَ « يوسف » أن يستريحَ ، فجلسنا حولَ الماء .

يا لله ! بون شاسع بين « يوسف الصافى » الذى أراه الساعة أمامى ، ذلك الذى يَفيضُ رِقة ووَداعة ، وبين ذلك الرجلِ الذى تلقانى من أيام كنَمِرٍ وحشىّ يتحفّزُ لافتراسى !

ووقعت عيناى على « مس إيفانس » وقد ظلت تنظر إلى أناملها ، ووجهها مكسو بامتقاع خفيف . فطأطأتُ رأسى ، وقد شاعتْ على وجهى ابتسامةٌ هادئة كابتسامة المهزوم وقد بدأ يستسلم لهزيمته ، ويستلذُّ آلامها .

وطرقَ سمعى صوتُ « الشيخ عاد » يقول له « يوسف » :

« ألم يَحِنِ الوقتُ لنعلمَ منك القصةَ بأكملها ؟

فقال « يوسف » وهو يداعبُ لحيتَه بأنامله مبتسما :

« إذا أذِنتمْ لى رويتها لكمُ الساعةَ ! »

فقال « الشيخ عاد » :

« كلُّنا آذانٌ صاغية . . . »

◦ ◦ ◦

فقال « يوسف » :

« أنتم تعلمونَ كيف دخلتُ على صفاءَ فى حفلِ عُرسها ، وكيف أصبتُها بغدّارتى ، فصرَعتُها . . . »

وتمهل « يوسف » قليلا ، وهو ينظر فيما أمامه نظراتِ تائهٍ شريد . ثم أرخى جفنيه قليلا ، وتابع قوله :

« ولما أردت رَفعَ الغدّارة إلى صدرى ، لم تطاوعنى يداى .

لماذا؟ لا أدرى ! . . . وفى خطفةِ البرق توارَيْت ، وجعلتُ أعدُو ، وأنا لا أعرف لى وِجهة ، أعدو وأعدو بلا تَرَقُّف ، فهل كان يتأثرُنى أحد ؟ وهل صاح بى أحد ؟ لا عِلمَ لى بشى ! . . . لمَ أكنْ أرى قبالتى إلا طَيفها مُلقًى على الأرض ، والدم يَتفجَّر من صدرها ، وعيناها مفتوحتان تنظران إلىَّ فى دهشة وعجب ، تسألانى : لِمَ لمْ أتمَّ الشَّطرَ الآخرَ مما اتفقنا عليه ؟

وكان السكون حولى فى صَمْتٍ مُرَوِّع ، فليس فى مِسمَعِى إلا أنينها المتقطع الضعيف . . . يا لله ! ساعات وساعات قضيتها وأنا أعدو كالوحش النَّفور المثخَنِ بالجراح ، يطلب له مخبأ يَقيهِ عَينَ الصائد !

واستلقيت على الأرض بغتةً ، فاقدَ الوعى . ولما فتحت عينى وجدت نفسى فى بقعَةٍ قاحلة ، أشبَه بالصحراء ، يُخيِّم فيها السكون ، وتُطبق عليها غياهب السَّواد . . . جلست أفكِّر طويلا ، ثم انفجرت أبكى وأشهَق ، ثم أصرُخ من صميم قلبى أطلب من الناس أن يَقبِضوا علىَّ يسومونى سوءَ العذاب .

To: www.al-mostafa.com

ولما انتهت تلك الأزمة ، قت أجُرُّ رجلىَّ واليأسُ يعشش في نفسى ، وتأنيب الضمير يمزقُ قلبي شرَّ ممزّق . . . سرت على غير هدى ، وقد أزمعتُ أن أقدّمَ نفسى لرجالِ الشرطة ، وأخلّصَ ضميرى من آلامه الشدَاد .

وما زلت أسير ، والعمران مستخف عنى ، لا أرى له من أثر ، والصحراءُ تنبسط أمامى لا أعرفُ لها نهاية . . . ولاح ضوءُ الفجرِ فى عُرْضِ الأفُق ، فتريثتُ طويلا أجيل فيه النظر ، وصحَتِ الشمسُ تسطَع بنورِها القوىّ ، فسرّحتُ بصرى فيما حولى ، فلم أجد إلا رمالا مبسوطة وحجارةً مبعثرة ، وتلالاً قائمةً هنا وهنالك . . . وبدأت أتعرّفُ أين يقع مكانى من الوادى ، فحسِبْتُه على وجه التقريب .

وتصوّرَ لى فى تلك اللحظة أنى أسمع صوتها ، فقفزتُ أطلب الخلاص ، وظللتُ أجرى ، ولا أجسُر على الالتفات خلفى ، حتى عَييتُ ، وانقطعت أنفاسى ، فارتميتُ على الأرض مختنقا خائرَ القُوى . . .

وترامت الأيام ، وأنا أهيمُ فى شِعاب هذه البقاع المهجورة ، مسلوبَ الفكر ، موزّع الإرادة ، لا أدرى ماذا أفعل ؟ فتارة

أجدُ بي مدفوعاً بعامل قويّ ، لا قِبَلَ لي بدفعه ، لأقتنيَ على حياتي بأيّةِ وسيلة ، وطوراً يتملكني جُبنٌ غريبٌ ، فأتهمّ بالخوف من كلّ شيء : من أشخاصٍ أتوهّمهم مُقبِلين يريدون القبضَ عليّ ، من التلال التي كانت تحيطُ بي كأنها سجونٌ مُطْبِقةٌ ضيقة ، من الصخورِ التي كنت أتخيلها آلاتِ قتلٍ وإهلاكٍ عملاقةَ الأشكالِ تتجهمُ لي . . . كنت أخاف من كل شيء ، حتى من نفسي ، فكان يرتسمُ في خاطري أن شخصاً يتقمص جثماني ، وسينسلخُ عني ، في يدهِ خنجرٌ في المقبرة ، يصوّبها إلى قلبي .

وعندما يُخيّم الليل ، تتراءى لي « صفاء » خطيبتي ، وهي تنظرُ إليّ في دهشة وحيرة ، بعينيها الشاخصتينْ ، تسائلني : لماذا لم أتمَّ الشطرَ الآخرَ مما اتفقنا عليه ؟ فأقضي ليلتي مُسهّداً ، لا يستقرُّ بي قرار ، أفتشُ عن مخبأ يُنجيني من نظراتها . . ومن أين ذلك لي ، وعيونُها دائماً أمامي ، تلاحظني من حيثما أتلفّت ؟

واستأنفتُ سيري ثانياً .. وتخيّرتُ لوجهي ناحيةَ الشمال ، ناحية الشمال دائماً !

وكنت أقتات بالأعشاب والبُذور ، وأرتوى من المناقع التى كانَ يَتَجَمَّع فيها ماءُ المطر وإذا لمحت قريةً من بعيد ابتعدتُ عنها ، حتى تختفىَ عن عَينىّ !

وكَرَّتِ الأيامُ . . .

وصادفتْنى فى الطريق بِرْكةُ ماء شهدتُ فيها وَجْهِىَ ، فكدتُ أصْعَقُ من هَوْلِ ما وَضَحَ لى : وجهُ رجلٍ هَرِمٍ تَتَعَرَّجُ فيه التجاعيد ، له لحيةٌ كثّة ، ورأسٌ قد غَزُرَ شَعْرُهُ واستطال وَوَخَطَهُ الشيب . . . لقد استحال وجه « يوسف الصافى » سَحْنَةً من سِحَنِ الدراويش ، ممن نقرأ عنهم فى كتب الأولين . . . ومكثتُ وقتاً أحدّق فى وجهى المتخايلِ على صفحةِ الماء ، ثم انطلقتُ أضحكُ طويلا !

وبدأت أتردّد على بعض القُرَى ، أطلب الكَفَافَ من الرزق ، فلا يكادُ الناسُ يتجمّعون حولى ، حتى تبلغَ بى ثورةُ النفس إلى الشَّتْمِ والسِّباب ، وأفرّ ضاربا فى فِجَاجِ الأرض.. وقد أسأل شخصاً أن يُنيلَنى قليلا من الطعام ، فإذا ما أتَى به نظرتُ إليه نظرةً شَزْرَاءَ ، ولويتُ عنه وجهى ، وتركته يقلّبُ فىّ نظراً حائراً ، وهو يغمغم فى تحسّر :

مجنون ! . . . مجنون ! . . .

وعلى الرَّغْمِ من هذه المعاملة الشاذَّة التى لقيتُ الناسَ بها ، كانوا يغمرونَنى بإشفاقهم وإحساتهم ، إذْ حَسِبُونى وليا من أولياء الله الصالحين ، أو مجنونا تاعساً يَجِبُ له الرِّثاء !

وكنت أتخيَّرُ الأمكنةَ المنعزلة ، لأقضىَ وقتاً أتأمَّلُ وأفكر . . . ولم يعُدْ للرُّعْبِ مكانٌ من قلبى ، وأخذتُ أنظر إلى جريمةِ القَتْلِ التى ارتكبتُها نظرةً هادئة . وأصبحتْ تتراءى لى « صفاءُ » وهى مُسْبَلَةُ الأجفان ، يحملُ وجهُها طابَعَ اللُّطْفِ والوَداعة !

وتمكَّن منى إيثارُ الوَحْدةِ ، والاستغراق فى التأمُّل . ألسنا كلنا مسيَّرِين فى هذه الدنيا ، كلُّ شىء يسير وَفْقَ الأقدار ، فهى التى تحكم إرادتَنا . . . ما نحن إلا يدُها التى تَضْرِب ، أو على الأصح صدرُها الذى يَتَلَقَّى الضَّرَبات !

وكنت دائما أسير نحو الشَّمال . ولما اقتربتُ من بلدة « بعتاب » تذكرتُ أن لنا قصراً مجهولا فى تلك الجهة ، فامتلأتْ نفسى غِبْطَة ، وما زلتُ أفتِّش عنه جاهداً ، حتى تعرفتُ عليه بعد لأْى ، واتخذت على الفور طريق إليه .

وهأنذا كما ترونَنى فيه ! »

فقالت «مس إيڤانس» وعينها رانيةٌ «إلى يوسف»:

«هل بقيتَ فيه حتى اليومَ لم تبرَحْه؟

— لم أبرحْه قطُّ، ولن أبرَحه ما حَييتُ، لقد أقسمتُ على ذلك، وسأبَرُّ بقسمى...

— وكيف كانت حياتُك فى هذا المكانِ المُنْعزلِ؟

— عشتُ هذه الأعوامَ الخمسةَ والعشرينَ قريرَ العين بوحدتى، خالياً بنفسى، أناجى شجونى، وأتأمّل الطبيعةَ حولى. فإذا نالنى همٌّ أو أصابنى ضيق، لجأت إلى صَلَواتى متقرّباً إلى ربّى، فسَرْعانَ ما يُعاودنى صفائىَ المنشود!

فقلت:

«هذا حسن، ولكنه على أيّةِ حالٍ نفىٌ مؤبّد!»

فأجاب:

«أتعُدُّ هذا نفياً؟... ألا إنى أعُدُّه الخلاصَ من حياةٍ زائفة!»

فقالت «مس إيڤانس» فى نَشْوةٍ:

«أنت الرجلُ الوحيدُ الذى فَهِمَ سِرَّ هذا الوجود...»

وسكتنا جميعاً ، وأذاً تنا سكون شامل . . .

* * *

عشنا مع « يوسف الصافى » أياماً أخر عيشة راضية هانئة خالصة من المفاجآت .

كانت صحة « يوسف » تتحسن يوماً بعد يوم ، وأصبح هادئ الطبع ، دمث الخلق . وقد توطدت علاقتى به ، فتوشجت بينى وبينه ألفة وثيقة العرا ، وطابت لى عشرته ، وساغ لى حديثه . واستطعت فى هذه الأيام القلائل أن أنعم بتلك الحياة الفطرية الساذجة التى يحياها .

أما علاقة « يوسف » بـ « مس إيفانس » فكانت علاقة احترام وود مشبعة بعاطفة دفينة تنم عنها فى بعض الأحيان ومضات عينيه أو خلجات وجهه . . . ولم يعد يسميها « صفاء » كما كان يفعل وهو محموم ، بل كان يتحاشى دائماً أن يسبق لسانه بذكر هذا الاسم أمامنا .

فأما « مس إيفانس » فقد لحقتها تغير جديد ، فلزمت الصمت ، إلا فيما تقضى به الضرورة الحافزة . وكانت تسمع فى شغف شديد لما يصف به « يوسف الصافى » منهج حياته

فى هذا المكان ، وكيف قضى الأعوام الطِّوالَ حبيساً بين هذه الجدران الشاهقة ، أو بالأحرى طليقاً بين أحضان الطبيعة . فإذا ما انتهىَ من حديثه ، انتبذتْ ركناً بعيداً ، وجلست تحْلم ، وقد وَضحَ على وجهها إشراقٌ عجيب !

وبينا كنت ذاتَ يوم جالساً إلى « الشيخ عاد » عند النبع ، نتبادل بعض الكلمات التافهة ، وعقولنا شاردةٌ فى ميادينَ شتى ، إذ أقبلت علينا « مس إيفانس » فرفعنا رأسينا إليها ، فإذا هى تقول فى اهتياج ، ونظراتها تنطق بعزمٍ وطيد :

« أصبحت لا أطيق المُكث هنا أكثرَ مما مكثت ! »

فقلت على الفور :

« ماذا ؟ هل أزمعْت السَّفَر ! »

فقالت فى لهجتها السابقة :

« إن مهمتَنا قد انتهت . . . ألم نَكتشفِ القصرَ ، ونعرفْ سرَّه الخفىَّ ؟ فلأىِّ غرض نَبقَى بعد ؟ إن هذه الأسوارَ العالية ترْهق أعصابى بمنظرِها الموحِش . . . أشعر بِضيق شديد . . . »

وظهر « يوسف الصافى » يتوكأُ على عصاه ، ودنا منا وعلى فمه ابتسامة رقيقة ، وقال :

« ماذا ؟ أراكم تتجادلون . . . فَفِيمَ هذا ؟ »

فقلت على الأثر :

« لقد اعتزمتْ « مس إيڤانس » الرحيل . . . »

فواجهها « يوسف » بنظرة استفسار ودهش ، وقال :

« لاشك أنكِ تمزَحين يا سيدتى ! »

فخَفَضَت من بصرها ، وقالتْ فى صوتٍ خافت :

« أكنتَ تظنُّ ، يا صديقى ، أننا سنقيمُ هنا إلى الأبد ؟ »

فقال « يوسف » :

« كلا . . . أنا عَليم بحاجتكم إلى حياة الحَضَر ، ولكن لم يمضِ عليكم من الأيام هنا إلا النَّزْر اليسير . . . لا ريب أن هذا المكانَ العابِسَ قد بدأ يضايقكم ! »

فهمَّت « مس إيڤانس » أن تتكلم ، ولكنها عادت فأطبقتْ شفَتيها ، وأسبلت جَفْنَيْهَا . . .

وأطرق « الشيخ عاد » وراح يخطّ بعصاهُ على الأرض بعضَ الرسوم الساذجة ، وقال لـ « يوسف » :

« لقد بدأنا ، يا صديق ، نستشعِر ثِقَل ضِيافتِنا عليك ! »

فصاح « يوسف » وعيناه تلمعان :

« أيجوز لك أن تتفوّهَ بذلك أمامى يا شيخ عاد؟ »

فقال الشيخ مبتسما :

« لو كان الأمر مقصوراً علينا ، نحن الشرقيين ، لما وجدنا بأساً فى إطالة أمدِ الضيافة . ولكن هذه السيدة ! . . . إنها لا تستطيع بعقليّتها الغربيّة أن تفهَمَ أساليبَ الضيافة كما نفهمه نحن . . . »

فالتفت « يوسف » إلى « مس إيڤانس » وقال لها فى حرارة :

« وإذا طلبت منك فى رجاء واستعطاف أن تطيلى أمدَ البقاءِ معى ، فهل ترفضين ؟ »

فصمتت « مس إيڤانس » وقتاً ، ثم هَيْنَمتْ وعينها تسبَح فيما أمامها :

« وَدِدت لو استطعت ! . . . ولكن . . . »

ثم عادت إلى صمتها القلق .

وشاركناها جميعاً فى الصمت ، فلم تنفرج شفاهنا عن حرف .

وكان « الشيخ عاد » لا يزال يخطُّ على الأرض رسومَه الساذَجة .

وبعد حين ، رفع رأسه ، وقال لـ « يوسف » :

« ما قولك ، يا سيد يوسف ، فى أننى جائع ؟ »

ثم نظر إلى « مس إيڤانس » وقال :

« وأنت ، يا سيدتى ، ألا توافقيننى على هذا القول ؟ »

فابتسمت ابتسامة خفيفة ، وقالت :

« إذا حضر شىء من الطعام ، فلن أتأخرَ عن مشاركتكم فيه ! »

فاستبانت على وجه « يوسف » إشراقة عابرة . وقال لها :

« إذاً هيّا . . . لقد أعددتُ لكم اليومَ طعاماً صنعَ على نحوٍ جديد ! »

• • •

وأخيراً آن يوم الرحيل . . .

فنهضنا من فراشنا مبكّرين ، وحزمنا الأمتعة ، وتزودنا بما يكفينا من المَئونة . .

ثم قمنا إلى قبرِ « جاعص » فقرأنا الفاتحة ، ونثرنا الزّهرَ !

ورافقنَا « يوسف الصافى » فاخترقنا سراديبَ القصر ودروبه ، والصمت الرازح يحيطُ بنا ، حتى وصلنَا إلى باب الخروج ، حيث الثّغرةَ التى دَخلنَا منها .

وهنا رَغبْنا إلى « يوسف » فى أن يرجع ، فتمستْ مراسم

الوَدَاع فى عبارات رقيقة . وعجبتُ كيف جاء توديع « مس إيفانس » لساكن القصر فاتراً على غير ما كنت أنتظر !

وافترقنا . .

وسرنا فى الطريق الذى جئنا منه ، وكنا نلتفت خلفنا بين فترة وأخرى ، فنلمح « يوسف الصافى » واقفاً أمام مدخل القصر يراقبنا ويلوّح لنا بيده . نخيّل إلينا — ونحن نراه فى موقفه هذا ، وهو بملابسه وهيئته الفطريّة وَسْطَ ذلك المكان السحرىّ — أنه رجل من أهل الكهف خرج يَسْتَجْلى العالمَ بعد نوم مئاتٍ من الأعوام . . .

٥

وسرنا . . . وسرنا . . .

والصمت دائماً يلازمنا ، ثم بدأت و « الشيخَ عاد » تتبادل بعضَ الكلمات ، فإذا بحديثنا تافه سخيف . أما « مس إيڤانس » فاستأثرَ بها الوجوم المكفهرّ ، لا تبدؤنا بحديث ، ولا تشترك معنا فى نقاش . . . وأقلقتنى حالتها ، وأسررت رأيي لرفيق ، فلم يُعِر كلامى أىّ اهتمام .

وواصلنا سَيْرنا بضعَ ساعات ، ثم اخترنا مكاناً نستجمّ فيه . . . ورأيت « مس إيڤانس » تخرج من صمتها ، فقالت وعيونها تلتمع بشعاع حائر مضطرب :

« ما أتفهَ الحياةَ يقضيها الإنسان فى عزلة نائية ! لا أدرى كيف تحتمل أعصاب المرء مثل هذا السجن القاسى ؟ »

فحدّقتُ فى وجهها متعجّباً ، ولم أنطقْ . . .

أما الشيخ فراح يداعب سُبْحَتَه ، ويتفحّص حبّاتها .

ثم قال :

« إن الأمورَ نسبيةٌ فى هذا الوجود . . . فما يعتبرُه أحدُنا تافهاً يعتبره الآخرُ مجداً من الأمجاد ، وآيةً فى كتابِ البطولة . . . »

فقالت :

« والحقيقة ؟ . . . أينَ هى إذاً ؟ »

فقال :

« صدقينى ، ياسيدتى . . . إن الحقيقةَ ضائعةٌ فى هذا الوجود ! »

فقلتُ على الأثر :

« اسمح لى ، ياصديقى ، أن أصارحكَ بأن هذه الأقوالَ من مغالطاتِ الفلسفة . . . . « الحقيقة » هى أن يحيا الإنسانُ فى هذه الدنيا وَفْقَ قوانينها الطبيعية . . . فهل العزلة ، والنفارُ من الناس ، وإيثارُ سجنٍ ناءٍ عن المجتمع ، يصح أن يعَدَّ من الأمور الطبيعية ؟ »

فأسرعت « مس إيفانس » تقولُ فى حماسة :

« إنى أسمى مثلَ هذه العزلةِ مرضاً اجتماعيا . . . لكل امرىء

فى الحياة رسالةً يجبُ أن يؤديها لبنى جنسه ، فإذا نَكَصَ على عقبَيْه ، عُدَّ ذلك فِرَاراً من الميْدان . . . »

فقلتُ فى حماسة لا تقِلُّ عن حماستِها :

« هذا الكلامُ هو عينُ العقل ! »

فابتسم « الشيخ عاد » ابتسامتَه الهادئة ، وأخذَ سُبْحَتَه ، وطفِقَ يَشَمُّها . ثم قال :

« ليس لى اعتراضٌ على هذا القول فى مُجْمَلِه . ولكن لاتنسَوْا أن لكل امرئٍ حقًّا فى أن يفسرَ قوانينَ الطبيعة على حَسَب مَنطقِه وملاَبَسَات حياته . . . »

ولبثْنا يومين كاملين فى مَعَاطِفِ الطريق . . . ولاحظت أن « مس إيڤانس » ماتستيقظ من نومها فى مَطْلَعِ الصبح ، حتى تخرجَ من الخيمة — أوما اصطلحنا على تسميته خَيْمَةً — وتَقْضِيَ وقتاً غيرَ قصير تطيل النظرَ إلى الجهة التى يقوم فيها قصرنا المسحور . . . فأراقبها خلسْةً وأنا متعجّبٌ من أمرها .

بيد أنى لم أراجعْها فى هذا الأمر بتصريح أو تلميح .

وقت مرةً مع « الشيخ عاد » نبحث عن وَقودٍ لإنضاجِ غذَائِنا ، وما كان أشدَّ دهشَتنا إذْ رأينا أربع بِغالٍ تسرَح

فى الجبل ، تقتات بأعشابه اليابسة ، فاقتربنا منها ولم نجد صعوبة فى طلبها واقتيادها .

وصرختُ مشيراً إلى بغلتَين منها :

« إنهما البغلتان اللتان تركناهما أثناء قدومنا ، ما فى ذلك ريب . . . ! »

فأخذ « الشيخ عاد » يربّت ظهريهما ويتفحّصهما ، ثم قال : يجوز !

— المشابهة بينهما وبين بغلتَينا واضحة ، لا تحتاج إلى دليل. انظرْ إليهما ، أليستا محجّلتَين ؟

— صحيح ، هما محجّلتان . . . ولكن ليس هذا دليلا قاطعاً . . . لو كان المرحوم « مجاعص » بيننا ، لأنقذنا من هذه الحيرة بالخبر اليقين !

. . . واخترنا البغلتين ، لحاجتنا إليهما فى الركوب ، إذْ كان نشاطنا فى السير مترجّلين قد أدركه الوهن والفتور .

وأشعلنا النار ، وبدأنا — أنا والشيخ — نُهيّئُ طعامنا . . وبقينا صامتين لحظة . ثم قلت لـ « الشيخ عاد » :

أتظنُّ أن شخصَين قد يتشابهان مشابهة تامة ، حتى ليختلطَ على العين الفاحصة أمرهما ، فلا تستطيعَ التفريقَ بينهما ؟

— مؤكّد !

— إذا اختلطَ على العين ذلك ، فهل يختلط على القلب أيضاً ؟

— أفصِحْ عمّا تريد . . .

— لنَفترِضْ أنك أحببتَ فتاة ، ثم فرّقتْ بينكما شجون الحياة ، وبعد انصرام عَشَرَة أعوام مثلاً لقيتَكَ فتاةٌ أخرى تُشابه الأولى مشابهةً تامة ، فهل تشعر لها بمثلِ الحبِّ الذي كنتَ تشعر به للأولى ؟

فأطرق الشيخ قليلا ، ثم قال :

من العسير أن نضع لذلك قانوناً عامًّا لا يتخلّف . . . فلكل امرئ مِزاجٌ خاص ، وشعور مستقل ، يختلف قليلا أو كثيراً عن مزاج غيره وشعوره . . .

— أؤكد لك أن الناسَ كلهم مزاج واحد وشعور واحد . إن طبيعتَنا البشرية تسير وَفْقَ قانونٍ واحد !

— وما هو هذا القانون ؟

— هو أن القلبَ لا يخطئ خطأَ العين ! فعواطفك لا

تنجذب إلى فتاة لمجرد أنها تشابه من أحببتها فى سالف حياتك !

ورأينا « مس إيفانس » آتية إلينا ، فانهمكنا فى إعداد الطعام وقد غيّرنا مجرى الحديث . . .

* * *

وفى اليوم الثالث صحوت من نعاسى ، واجتمعت به الشيخ عاد ، لنتناول الفطور ، فلم أجد « مس إيفانس » فسألته عنها فلم يجبنى . . . بل اقتصر على ابتسامة هادئة مديدة ، فيها معنى الاستسلام والاستخفاف بكل شىء . فلم أفهم ما يعنيه ، فسألته :

« أتناولت فطورها منفردة ؟ »

فناولنى بضع تينات جافة ، وقال :

ألم تكن تتوقع لها هذا الأمر ؟

— أى أمر تعنى ؟

— لقد ذهبت . . .

— ذهبت ! . . . إلى أين ؟

جذبنى من يدى ، وخطونا بضع خطوات ، ثم وقف

وهو ينظر فى اتجـــاهِ الناحيةِ القائِم فيها القصر ، وأشار إليها وهو يقول :

« هناكَ . . . ألمْ تَـفْهَـمْ ؟ »

ووقفتُ جَـزِعاً ، وقد فَطَـنْت إلى ما يَـعْنيه .

ثمَّ رجَـعْنا إلى مكانِنا ، وتابعنا أكلَـنا صامتَـيْن !

أحدث مؤلفات محمود تيمور

أبو الهول يطير

مشاهدات وخواطر يسجلها سائح فى العالم الجديد

سلوى فى مهب الريح

قصة تبسط حياة فتاة لعبت بها ضروب من تصاريف القدر

عطر ودخان

فصول طريفة فى نقد الحياة والمجتمع

(طبعة ثانية جديدة مزيدة)

مكتوب على الجبين

(طبعة ثانية جديدة)

فرعون الصغير

(طبعة ثانية جديدة)

كليوباتره فى خان الخليلى

قصة الصراع الدائم بين عالم الحقيقة وعالم المثال

حواء الخالدة

قصة المرأة منذ الأزل وقصتها إلى الأبد

شفاه غليظة

مجموعة من أقاصيص مصرية

بنت الشيطان

قصة الخير والشر فى طبيعة البشر

فن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصى

(طبعة ثانية مزيدة)

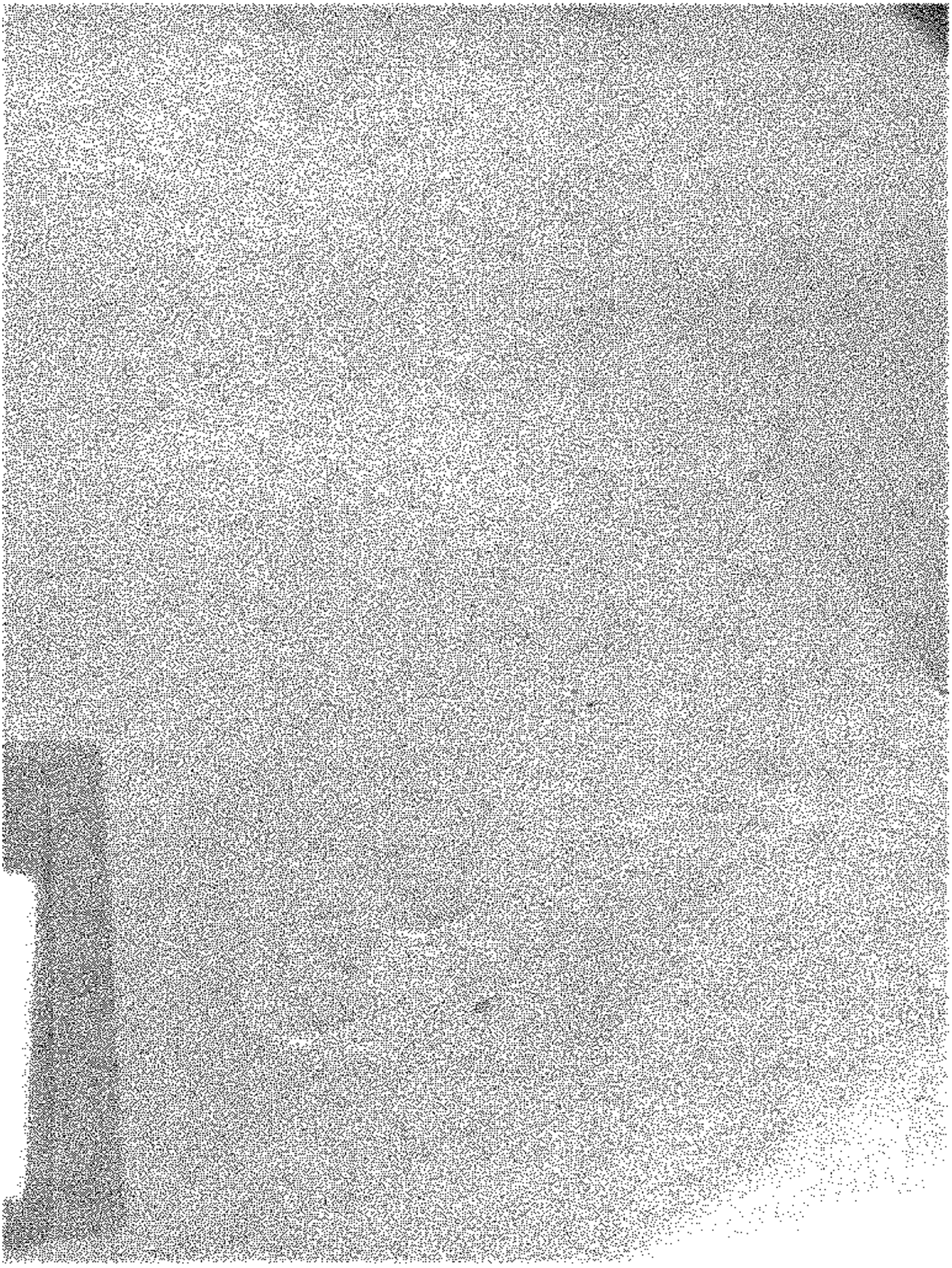

To: www.al-mostafa.com